

ارتقاء المرأة

LA PROMOTION DE LA FEMME

تأليف الكاتب الفرنسى الكبير لوسيان روميه Lucien Romier

لوسيان روميه من اولئك الكتاب الذين تشمل فيهم خصائص العبقريّة الفرنسية أبلغ تمثيل . فهو رشيق العبارة واضح الأسلوب مقتصد فى اللفظ يجمع إلى الدقة والتناسب قوة المنطق واتساع مدى الفكر . وهو ديموقراطى المزاج حر النزعة يشترك والكاتب الايطالى الشهير (فييرو) فى الدعوة إلى مقاطعة الأنظمة المتطرفة كالشيوعية مثلاً بالمحافظة على النظام النيابى — كما تفهمه فرنسا — وتركيزه على قواعد ثابتة وتكوين طبقة من رجال الثقافة العلمية والأدبية الممتازين يتصدرون لقيادة الراى العام ويستخدمون ثقافتهم ورءوس أموالهم فى الذود عن حق الملكية . ونظام الأسرة . وحرية الفكر . وتمثيل الشعب . وسائر أغراض الديمقراطية . ثم يسمون فى الوقت نفسه لتأليف ولايات أوروبا المتحدة على قاعدة التحالف الاقتصادى وهدم الحواجز الجمرية وتأسيس جبهة مشتركة تحمى الحضارة الاوربية من طغيان آسيا وأمريكا . وقد عالج لوسيان روميه معظم هذه الموضوعات فى مؤلفاته : « الامة والحضارة » و « تفسير العصر » و « من الذى سيسود : أوروبا أم أمريكا ؟ » وفى شتى المقالات التى ينشرها فى لبريات الصحف الباريسية . وهو فى كتابه « ارتقاء المرأة » الذى نلخصه اليوم يبدو لنا كفكر عملى يحيل فى مختلف مظاهر الاخلاق النسوية الجديدة فى أوروبا وأمريكا نظرة مدققة فاحصة ثم يسجل هذه المظاهر على حقيقتها فى حيدة تامة وأمانة مطلقة رغبة فى إعطاء صورة صادقة عن مبلغ تطور المرأة الاوربية منذ نهاية الحرب الكبرى الى يومنا هذا

وقبل أن يشرع لوسيان روميه في تحليل شخصية المرأة الحديثة يمهّد لتحليله
ببحث مستفيض عن الرجل والمرأة عامة . عن موقف الجنسين من حيث علاقاتهما
بالطبيعة الأبدية وأحكامها . والغريزة وتفاعلاتها وقانون التناسل وواجب حفظ
النوع والسهر عليه . فيقول ان الرجل يخلق المرأة والمرأة تخلق الحب

لا تكاد تستفيق العاطفة الجنسية في جسم الرجل وعقله حتى تستدق اعصابه ،
وينمو خياله ، وتزدهر فيه بقة ملكات الشعر . فتبدو له الطبيعة في حلة رائعة
من جمال . فينقل الطرف بين النساء ويحلم . يحلم لامرأة محدودة بل بالمرأة ككائن
أبدى . المرأة كاقوى العناصر غرابة وحياة . يحلم بها . وتطوف شخصيتها العجيبة
بمسرح خياله فيضفي عليها كل ما اخذته عينه من جمال . يرى فيها شعر الوجود
ويلبح من خلال نظراتها نفس ذلك السر الفاتن العميق الذى يحسه أمام الطبيعة
كل يوم فيكبر من شأن المرأة ويتمنى بها يرتس فيها كل ما هو طيب وجميل .
وهكذا يخلقها تصوره الشعري خلقاً . أو تخدعه الساطفة الجنسية فتزينها له تحقيقاً
غاياتها الخالدة

أما المرأة فتفتن في التجميل . وتفتن في الدعاب . لتظفر بالرجل ويزيدها الدهاء
غرابة . ويزيدها القلب غموضاً وسحراً . فيبدا هي باسمه مقبلة ؛ اذا بها مقبلة
معرضة تدافع عن نفسها جهدها . قبل أن تسلم بشيء . وتعذب الرجل ما استطاعت
قبل أن تهوى بين ذراعيه . وهى انما تقاوم الرجل لتختبره وتحسن اختياره وتسكفل
لها ولأولادها في المستقبل حياة سعيدة مطمئنة

هذا الاسلوب في المقاومة هو الذى يغرى الرجل بها ويلهبه ، ويخاق الحب
في نفسه ويخضعه ، ويوفق في النهاية بينه وبين المرأة في سبيل تأسيس الاسرة وحمايتها
تلك كانت طريقة المرأة في اجتذاب الرجل لما أن كانت الحياة فطرية بسيطة .
والحضارة زراعية أولية . والمرأة جاهلة ضعيفة تعيش عالة على أهلها . وتظل
ترقب الساعة التى تحظى فيها بالزوج الذى يتعهد بها ويرعاها ويقوم على شؤونها
وشؤون ابنائها في دائرة الاسرة

كانت المرأة تشعر بعبوديتها الاقتصادية فتحاول أن تستميل الرجل وتستبقه

وتسلط عليه بأسلحه الضعيف العاجز . فتفرط في التبدال والتجمل . وتخلو في اصطناع اللذة ، وتمنى الرجل ثم تنصرف عنه . تصارجه ثم تمسك به . تشعل غيرته ثم تحنو عليه . وهى تعلم علم اليقين أن من هذه المناورات ينشأ الحب العاصف الذى يخضع لها الرجل ويمدنها منه

وعليه فوقف المرأة هذا فان يسمم الاسرة ويقيمها على قاعدة المصلحة وكثيراً ما كانت المرأة تزوج مرغمة بدافع الحاجة والعرف فما ان تستيقظ فيها عوامل الفكر والملاحظة وتشهد حقيقة الزوج الذى اكرهتها المقادير على التقيد به وكيف أنه لم يسد بحبها . ولم يعد يحفل بارضاء عاطفتها حتى تبدو لها الاسرة كسجن مظلم ضيق فتتزعج الى حياة أخرى وتتطلع الى رجل آخر . وبما انها تحرص أشد الحرص على الا تفقد زوجها واسرتها ومركزها الاجتماعى المادى الوطيد ففى تعمل على ارضاء شهواتها فى الخارج وارضاء واجبها الزوجى فى الداخل فتألف النفاق وتعتاد المواربة والغش . وتوزع قواها بين مختلف الاهواء والميول فتصبح الاسرة وقد انحلت روابطها وتضعضع بليانها فريسة شر الفواجع التى لا يدكر عنها غير الاطفال الابرياء المساكين

وبما لا يقبل الريب أن الفتاة التى تعيش فى كنف والدها وإخوتها وأقربائها لامهنة لها ولا مورد تضطر للنزول عن حقها فى اختيار الزوج . ففى لاستعبادها الاقتصادى مستعبدة من ناحية العاطفة أيضاً لاستغلال أن تقترب بالرجل الذى يختاره قلبها . وهى لعجزها الاقتصادى تقيم المال أكبر وزن فتؤثر الزوج الغنى على الفقير وتضحى فى أغلب الاحايين بالاحساس الصادق والحق السليم فى سبيل النعمة والرفاهية

فالفتاة الثرية التى تربت تربية منزلية والتى يغنيها ثراؤها عن العمل تستعبد

لتقاليد بيتها وتدفع الى الزواج من الرجل الثرى

والفتاة المنتمية إلى الطبقة الوسطى تتطلب هى أيضاً الزوج الثرى فان فازت به اطمأنت الى المستقبل وإلا رضيت مكرهة برجل من طبقتها . وما دام زوجها على قيد الحياة ففى آمنة فاذا ما قضى تسكفل بها أينأوها أو أهلها أو ذهبت

تبحث عن عمل لا طاقة لها عليه ولا معرفة ولا استعداد وكثيراً ما تختار أهون السبل فتحترف الدعارة

أما بنت الشعب فقد كانت على الدوام اسعد وأشقى من اخواتها حظاً ومسيراً فهي اما أن تتزوج فيسرى عليها بعض ما يسرى على فتاة الطبقة المتوسطة ، واما أن تكون قد نشأت على العمل الحر ومارسته الايام الطوال فاعتادته ولم تعد تخشى المستقبل ، واما أن يكون العمل قد أنهنكها وأياستها منه قلة الربح فأعرضت عنه وبهرتها مظاهر الترف فضعفت واستسلمت فجرفها هي الاخرى تيار الدعارة ذلك ما كان يقع بالامس وما يزال يقع بين الشعوب المتأخرة حتى الآن . أما اليوم فالحضارة الصناعية قد بدلت كل شيء . ظهرت الآلات فاستغلتها أصحاب رؤوس الاموال وأرادوا أن يضاعفوا إنتاجهم ففتحو أبواب المصانع لا كبير عدد من العمال والميكانيكيين فتضخم الانتاج وتنوع ، وبدأت المعامل تخرج أعجب أدوات الترف وأروع وسائل المتعة والنسيم

اخترعت الطائرات والدراجات والسيارات والسينما والفونوغراف والراديو فاحس الجميع أن قد تشعبت الملذات وتهددت الحاجات والمطالب وأن الانسان كلما ازدادت قدرته على الاستمتاع نمت فكرة الحرية في النفوس وتعشقها الرجال والنساء على السواء

ولكن الظاهرة البارزة في الحياة الاوربية والامركية اليوم هي أن الفرد حر فيما يتعلق بملذاته وملاهيته ولذنه في الواقع عبد للعمل ونظامه فاصحاب المصانع - اوريين كانوا أم أمريكيين - يجتهدون في توزيع عملهم وتنظيمه تنظيمًا شاملاً دقيقاً بحيث يستطيعون انتاج الاصناف « بالجملة » انتاجاً وفيراً يفرض استهلاكه على اغلبية الشعب فرضاً

هذا النظام يحدد للعامل في المصنع عمله ، وفي الاسرة ادوات منزله ، وفي الخارج موبله واذواقه ، ولا يمنحه غير حرية التمتع المادى المحض ، أى حرية الذهاب الى السينما ، وركوب السيارة ، وسماع الراديو ، ومخالطة أى الناس شاء فالجتمتع الاوربي والامريكي اليوم يتجه نحو « النظام التجميعى » نحو تساوى المجموع وخضوعه في دائرة العمل . وحرية الفرد واستقلاله في دائرة الملذات .

وبما أن العمل هو الذى يأتى بالنقود ، ويسهل حرية التمتع بأفانين الحضارة الجديدة ، ويشعر الفرد بجدارته واستحقاقه ، ويخوله حق الاستقلال بمنازعه ومشتبهاته فقد رأت المرأة أنها ستفقد سلطانها على الرجل ، وتفقد ثمرة الحضارة الناشئة ، وتظل فى البيت مستعبدة ، إذا هى لم تخرج للعمل كالرجل ، وتأخذ قسطها من نعيم الحضارة ولو أدى بها الأمر الى النزول عن شخصيتها والاذعان للنظام السائد نظام العمل الصارم التجمعى . فالمرأة المصرية تهجر بيتها لتجد فى الخارج العمل والرجل معاً وهى لم تهجر البيت الا لأن الرجل ينفق فى المصانع والمكاتب والرحلات والملاهى ضعف الساعات التى كان ينفقها فيها سابقاً

وعليه فاتصال المرأة بالرجل فى كل شىء . فى العمل واللهو . فى المصنع وملعب الرياضة ، فى المكتب ودور السينما ، فى الجامعة والمسرح ، خفف من وطأة الحب القديم ، بل أزال الحب القديم القائم على الغلو فى التحمس والغيرة والشهوة والشاعرية ، وأحل محله الحب المتزن العميق بشعرد البسيط الصادق . وزيادة على ذلك فقد ولد ذلك الاتصال بين الرجل والمرأة ضرباً من الصداقة الصريحة النزيهة لم تكن مألوفة من قبل . فأصبحت الفتاة تفهم الشاب وتفطن لآلاعيه وتحذره وتقدره اذا استحق التقدير ، واصبح الشاب يحترمها ويتميزها ولا يجد فائدة من اتخاذ الاساليب القديمة فى اسئالها واغرائها . فهى اليوم تظل عانساً اذا شامت الاحتفاظ بحريتها ، أو تختار لها الزوج الذى تريد فان خاب أملها فيه طلبت طلاقها منه وعادت تباشر عملها ، وقد تتزوج وتطلق ثلاثاً أو أربع مرات كما تفعل معظم النساء الأمريكيات . وهذا ما يقلق المفكرين على مصير الأسرة ، فبعضهم يلعن الحضارة ويقول أنها قتلت فكرة الزواج ، والبعض الآخر يحمل على المرأة ويصرح بأن حريتها هدمت الاخلاق ، وأنها مخلوقة متقلبة وحشية غريزية لا تحسن استخدام الحرية الا لتفوز بأوفر قسط من الرذائل والشهوات ، والحقيقة — فى عرف لوسيان رومييه — ان الحرية لا تهدم الأسرة والعمل لا يهدم الاخلاق . وان المرأة التى لم تعد فى حاجة لرجل يعولها تظل — بحكم وظيفتها الطبيعية — نزاعة الى الامومة والزواج

والكن التطور العظيم الذى وقع هو أن المرأة اليوم تتدف موقنين واضحين :
فهى إما أن تستغل الحرية فى سبيل الرذائل والشهوات . وإما أن يكسبها العمل
احساساً بالآباء والعزة فتقبل على الزواج مختارة وتحاول أن تبني الحياة الزوجية
على الحب الصادق والكرامة والاخلاص المتبادل ما دامت تشعر أنها لم تضطر
إلى تلك الحياة اضطراراً وإنما اختارتها بمحض رضاها ، وإنما ليست عبدة
للرجل ، وإن فى وسعها العودة إلى العمل توطاً إذا لم تحقق فى الأسرة ذلك التفاهم
الخلقى والعاطفى الصريح

فلاسرة الأمريكية والأوربية اليوم قد تكون قصيرة الاجل ولكنها أقرب
إلى الصدق والاستقامة مما كانت عليه فى أى زمن مضى والمرأة الحديثة الصالحة
للعمل لا تجد فائدة فى خداع زوجها والكذب عليه والانصراف لشهواتها إذ
ما عليها — لو أنها كانت فاسدة الميول — إلا أن تظل فتاة عانساً حرة
مطلقة القياد

وهكذا قد خدم العمل الأسرة وأتقذ المرأة من النفاق فهى إما صالحة أو
طالحة ، فاضلة أو متهتكة ، نزيهة أو غادرة . بعكس المرأة القديمة التى كانت
تجهد خيالها المنحط وعبقريتها النسوية المستعبدة ، كى تقرن الفضيلة بالرذيلة
والصدق بالرياء ، والوفاء بالغش ، والعطف بالازدراء والسراهمية ، احتفاظاً
بالزوج الذى يعولها والأسرة التى بدونها لا تستطيع أن تعيش !

ومن اجزل الفوائد التى عاد بها استقلال المرأة على المجتمع أن سلطان المال
على الزواج قد ضعف وأن الشاب الغنى لم يعد فى وسعه التفاخر بإمكان احتلال
قلب أى فتاة ، وأن الفتاة التى تمارس مهنة ما تتروى وتراجع نفسها مرات
إذا ما اعتزمت الزواج وخبرت بين فنى مخاض نشط فقير ، وبين أنانى
عاطل ثرى

والمشاهد فى الحياة الغربية اليوم أن الشاب والفتاة يقيس كل منهما شخصيته
الآخر بعين مدققة ، يميز بين قوتها وضعفها ، بين عجزها عن الكفاح ومقدرتها
عليه ، بين ثباتها على الحب أو استهتارها به ، وهذا ما يثبت دعائم الزواج ولا
يجعله مغامرة إحساسية ومادية كما كان

فاذا كانت حوادث الطلاق — برغم ذلك — قد تضاعفت ، فالسبب لا يرجع إلى أن الزواج القديم كان أصالح من الزواج الراهن بل إلى أن الزوجة المصرية — التي لا تستبقيها في الأسرة المزرعة المتداعية عواطفها الدينية أو حبها لابنائها ورغبتها في التضحية بنفسها من أجلهم — تجد اليوم كافة الوسائل الشرعية التي تحررها من زواج فاسد ، وكافة الموارد المادية التي تكفل لها ولأطفالها حياة شريفة حرة لم تكن لتعلم بها في العصور الماضية . . .

ومن جهة أخرى فاندماج المرأة الحديثة في مختلف فروع العمل ، واتصالها بالرجل ، واشتغالها معه جنباً إلى جنب ، قد هذب العاطفة الجنسية ولطفها ، واستل منها غلظتها الوحشية الأولى ، واستوضح خفاياها ، وردّها إلى جوهرها الطبيعي البسيط ، فلم تعد ثمة أسرار جنسية تثير فضول الجنسين وتؤاب الواحد منهما على الآخر ، وتحيلهما شبه حيوانين مفترسين ، بل قد سقط القناع عن وجه كل منهما فتعارفا ورائدهما العقل والملاحظة اليومية المتيقظة

فالحب اليوم لم يعد كما كان بالأمس أعمى ، تحف به الخيالات وتكتنفه الأكاذيب ، بل هو بصير معتدل ذكي ، وليس المحب الجاهل المستعبد كالمحب المتحضر المتعلم الحر

ولرب معترض يقول ولكن زوال الفوارق بين الجنسين ، واختلاطهما في معاهد العلم وأمكنة العمل ومعرفة الرجل بطبيعة المرأة والمرأة بخاق الرجل ، قد مجرد المرأة من غموضها الفاتن ، وسجرها القديم فيخلق شهر العواطف . ويقتل الحب . وهذا كلام صحيح في ظاهره ، ولكن الواقع ينكره

اذ ليس الجهل بطبيعة المرأة هو الذي يكسب الحب قيمته الغالية بل هو الحياء . . . والمرأة تدرك بسليقتها تمام الادراك أنها لو نزلت عن حياتها لاصبحت هبة جسمها للرجل لاقيمة لها . ولعافها الرجل وازدراها واستهتر بلذة لا يكلفه الحصول عليها أى مجهود

فالحياء مقترن بغريزة المرأة هو الذي يسوق الرجل إلى الحب . إلى التعبير عما في نفسه وإبشار مخلوقة على أخرى لإشاراً قد يفهم إلى الزواج

واذن فلا محل للخوف على الحب من المعرفة المتبادلة ، ولا على الزواج من الاختلاط ولا على الأسرة من الحرية ومهما صرخ المحافظون فلن يرجعوا بالمرأة الحديثة الى الوراء

أجل . قد يفقد الزواج من تأثيره على مر الايام ، وقد تتبرم المرأة به ، وقد يندر وقوعه في مجتمع نساؤه أحرار عاملات متعلقات ، يفهم من الرجل أكثر مما يجب ويحذرنه ، ومع ذلك فالزواج رغبة فطرية باقية . سيبقى الزواج ولكن عقلية طلابه هي التي ستتبدل ، والراغب فيه سيجتهد قبل كل شيء في ألا يتخذ من شريكه وذلك بأن يتجنب هو أيضاً أخديعته فيستقيم بنيان الأسرة على النزاهة والصراحة والصدق وهذاذا يكون تحرير المرأة وارتقاؤها قد ارتقى بالجنسين معاً : المرأة والرجل !

العبقريّة والحب

ذكريات مدام جورجيت لوبلان

Souvenirs de Mme Georgette Leblanc

بعض خصائص العبقريّة

يبحر العقل العادي في ادراك سر العبقريّة ونظامها . وهل تسرى عليها القوانين والمصطلحات التي وضعها علماء الاخلاق والمتشرعون ، أم هي عنصر من عناصر الطبيعة الجامحة ، وقوة تحمل في تضاعيفها قانونها الخاص الذي يهزأ بكل عرف وقانون ؟ . . .

ان من أظهر صفات المجتمعات البشرية حبها الجود واخلادها الى الراحة والسكينة ، واعتيادها العيش في ظل التقاليد . وتبرمها بالجهود الكبيرة التي لا بد يتكافها الناس اذا ما نزعوا الى التجديد أو أقدموا على الطفرة

لذلك هي تنفر من كل متطرف وتعطف على كل معتدل
تضمئن لاشباه المفكرين ذوي العقول المترددة والاعصاب الباردة ، وتحشى العباقرة ذوي الاذهان الوثابة ، والخيالات الحارة المدمرة

تعترف بالفئة الاولى ، وتزهو بها ، وتمنحها المجد والمسال ، وتيجاد الثانية وتنكرها وتضطهدها وتفرض عليها الصمت والذل والجوع !

والسبب في هذا هو أن لكل عبقري صحيح مثلاً أعلى . يتمصب له ، ولا يتسامح في تطبيقه ، ويحيا لاجله ، ويكافح في سبيله ، ويرتضى الموت عن طيبة خاطر للذود عنه !

والمجتمع يكره المثل العليا وأصحابها لشهوره بالفارق العظيم بين مقياس جهده ، ومقياس جهد العبقري . بين ما يطالبه به العبقري من قوى هائلة لتحقيق المثل الاعلى ، وبين ما يستطيع المجتمع القيام به . . .

على ان المجتمع مستعد لتقدير المثل العليا ، ولكن متى اقتنم بها المعتدلون على مضي الزمن ، وأثبت فخصهم المشاككي البطيء انها صالحة ، ثم شرعوا في تحقيقها بعد أن يكون الداعي اليها قد قضى شمعهم عنادهم وغباؤهم وضحية كسل الاغليات ويجريدها عندئذ يشاد بذكره ، ويقر بفضلها ، وتنشأ باسمه المشروعات وتنصب له التماثيل ، وهكذا يصبح المجد أو يمسي . كما قال بلزاك - شمس الموتى ! .

فسواء أكان العبقرى مصلحاً أم فيلسوفاً أم شاعراً أم قصصياً أم فنانياً فقوام خلقه الوثبة والاستحداث والتجديد ، مع الايمان بنفسه وبصواب مايدعو اليه وهو لا يجدد في العرض بل في الجوهر ، ولا يستحدث في الفروع ، بل في الأصول . ينبذ التقاليد ظهرياً ، وينفض عن كاهله عبء القرون ، ويتقدم عصره ، ويرسم للانسانية طريق المستقبل !

وبما أنه يتقدم عصره فهو إذن يرى مالا يراه عصره . وقد تكون العلوم والفنون مزدهرة في عهده ، ولكنه يجتازها غير محتفل ، وفي أخذة من أخذات النفس ، وبارقة من بوارق الاشراق الروحي ، تقع بصيرته على الفكرة العميقة الخفية ، أو الاصلاح الاجتماعى الثورى ، أو الطابع الفنى الطريف ، أو الاستكشاف العلمى الخطير ، مما ينفق غيره من النبغاء العاديين أعمارهم في سبيل الوصول اليه عبثاً . .

اذ العبقرى غريزة والهام ، والنابهة ارادة وصبر ودأب . الاول يتسكر ويخلق حراً ، لان عمل الطبيعة الممثلة فيه ان يتسكر وتخلق حرة ، أما الثانى فيمثل المجتمع ، يحترم الماضى ، ويهتدى به ، ويلم بجميع خلفائه ، ولا يتسكرا الا فى دائرته ، وفق روحه السائدة ، وأساليبه المقررة فى البحث والتفكير . .

ولا يجب أن يفهم مما تقدم أن العبقرية الفذة هبة عاطفية محضة ، وان مركزها فى الغريزة والعقل الباطن فحسب وانها قد تستغنى عن الثقافة اطلاقاً ، كلا . انها على قدر ماتنهل من موارد الثقافة العامة يتسع مدى بصيرتها وتتراعى آفاق تجديدها . لذلك نحن لا نعرف عبقرياً أصيلاً خشى أو يخشى من الثقافة على مواهبه الخاصة ، بل المشاهد على النقيض أن العبقرى أشد الناس إصاباً بالشره

العقل ، يستوعب الثقافات ويضمها مهما اختلفت وتعددت ، يفتق بها خصائصه ، ويشحن غريزته وعقله ، ويقف على مخلفات العصور ليضيف اليها ما توحى به ملكاته المستقلة الخالقة !

أنانية العبقرى

ولكن كيف يعيش العبقرى ؟ كيف يفكر ويخلق ؟ بل كيف يلهم ويحب ؟ إن اسكل عقل كبير مزاجه الخاص . وعاداته وطباعه ، وميوله واهوائه ، والحوادث التى مر بها ، والاحساسات التى صادفها ، غير أن الملاحظ بالرغم من هذا ان هناك ظاهرة عاطفية أساسية يشترك فيها العباقرة جميعاً ويعرفون بها ، وهى الانانية !

وأنا سأحدثك أيها القارىء عن مأساة فكرية ووجدانية أحدثتها أنانية عبقرى . سأحدثك عن أديب فذ هو الكاتب والشاعر والروائى البلجيكي موريس ماترلنك وعن حياته الخصوصية واسلوبه فى التفكير والابتكار . وغرامه العظيم بالمرأة العظيمة التى استوحاها فنه وفكره مدام -جورجيت لوبلان . فلقد تحابا ، وتفاهما . مدى عشرين سنة ولكنهما اختلفا فعاد الرجل الى وحدته . وعادت المرأة الى سابق حياتها ولكنها الآن وقد هفت نفسها الى غرامها الكبير ترجع بذهنها الى ايامها الرائعة وتستبش ماضيها وتقص علينا ذكرياتها فى كتاب أثار ضجة عظيمة فى الاوساط الادبية فى اوربا كلها

ونحن لم نقصد بتحليل هذا الكتاب وتلخيصه ان نسرده حكاية غرامية لذيدة بل نحاول النفاذ الى جوهر شخصية عبقرى ، وان نفهم ماقبحة الحب فى نظره وهل فى وسعه ان يجمع بين حب المرأة وحب العمل الادبى ، أو ان يضحي فى سبيل المرأة ولو بجزء من العمل الادبى . وهل فى مقدوره ان يحبها لذاتها وان يحترم كيانها المستقل ، وألا يسطو على افكارها وارائها وإحساساتها ونظراتها فى الناس والحياة فيسلبها إياها ويذيعها لنفسه ويحولها الى مادته الخالقة وعمله الادبى ؟ . كما أننا سنجهتد فى بحث شخصية امرأة ممتازة لنذكر الاسباب والدوافع التى

حملتها على هوى العبقري . وما اذا كانت أحبته حقاً ، وما اذا كان في وسع أية امرأة أن تحب عبقرياً ، وما إذا كان العبقري يأبه للحب والعواطف ولو كان أديباً أرصد حياته على رسم العواطف والتغنى بالحب !

موريس ماترلنك شاعر رمزي ، وكاتب صوفي . شعره مقطوعات رقيقة عذبة ، وحكايات ساذجة بريئة يرمن فيها الى قوى القدر الخالدة بالحب والبطولة والايمان والتضحية والموت وآثارها في سحر الحياة وتجميل معناها وتقديس غاياتها ، والسمو بالانسانية ولو على انقاض نفسها

وهو ناثر بليغ تسترعيه أدق الميول وتستتويه أخفى الاحساسات الكامنة خلف ظلمات الواقع فيقبل عليها ، ويتأمل فيها ، تأملاً صوفياً عميقاً من حيث علاقتها بالأبد واتصالها بجوهر الطبيعة الذي لا يتبدل

فهو لا يرسم عواطف الفرد بالنسبة الى نفسه بل عواطف الفرد والمجموع بالنسبة الى الازل ، وذلك هو مظهر العبقريّة الصحيحة التي لا تستوقفها الاعراض الزائلة بل تطل على الحياة الكبرى فتندمج تواء في قوانينها الثابتة ومادتها الأولى وأصلها الآلهي

وان درامات ماترلنك (كبلياس ومليزاند) و (البرنيسيس مالين) و (اجلافين وسليزيت) ورسائله في طباع (النساء) وفي معنى (الصمت) و (أدب الصوفية) و (الروح الفاجعة في الحياة اليومية) وغيرها لتدل أبلغ الدلالة على أن الرجل لا يكتب متجه البصر نحو عصره بل مشرب الفكر والخيال نحو الحياة الانسانية الكاملة

وكانت جورجيت لوبلان قد سمعت باسمه ، وطالعت مؤلفاته الأولى ، وأعجبت بها أشد إعجاب وتمكن منها أسلوب ماترلنك ، وفنه القائم على مزج الحقيقة بالحلم . والشعر بالفلسفة . فاحبته . احبته دون أن تراه ، أحبت فيه الشاعر الذي استطاع أن يعبر عن آمالها وآلامها . عن خباياها ومطامح نفسها ،

أحبت فيه خياله الرائع . ومختلف الصور الذى أبرزها هذا الخيال . أحبت فيه ما كان ينقصها وما أحست أنها لو استولت عليه لا كتملت شخصيتها غاية الاكتمال .

وكانت فتاة فى العشرين ، على جمال رائع ، مغرمة بالازياء الفنية الغريبة ، مفتونة بالعواطف الانسانية الكبيرة ، خيالية النظرة الى الحياة ، تلتهمس الشعر فى كل شئ . وتؤثر الشعر على كل شئ ، نزاعة الى الحرية ، تواق الى المجد . شغوفة بتمثيل أدوار بطلات الحب والالم والشأ والتضحية على مسرح الواقع ، ملتزمة الاعصاب . فوارة المزاج ، متطرفة الميول ، على شئ كبير من النبوغ فى الكتابة والأدب مثقفة ، ذكية ، خليقة فى تحفظ ، طائشة فى اعتدال ، تهوى الموسيقى والتمثيل ، وتعمل على أن تصبح ذات يوم مغنية وممثلة فذة شهيرة

هذه الخلوقة العاصفة رأت فى فن ماترلنك من الهدوء ، والرصانة ، والتأمل ، والحلم ما استهوها واشهرها بان لاسلام الا هنا . ولا استقرار ولا أتران ولا اكتمال إلا بقرب هذا الرجل العجيب !

قدمت اليه فى حفلة . فما أن أبصرها حتى أحس هو الآخر بان ما ينقصه مثل فيها . واجالت فيه طرفها الفاحص . فشاهدت رجلا مديد القامة . صاب العود ، عريض الكتفين . مفتول الذراع . له نظرة محجبة بعيدة ، وقسمات جافة . ويدان غليظتان كأيدي الفلاحين ، منكش ، وجل ، خجول . صموت !

راعها منه شبابه . وقارنت بين رقة فنه وقوة عضلاته فاعجبها هذا التناقض وأثار حساسة الفضول فيها وأخضعها

وتبودلت بينهما الزيارات . وذهل ماترلنك لهبوط هذه المرأة الفجائى به . هذه المرأة الولوع بكل عظيم وجميل ، المرأة التى تقصد المتاحف وتقف برسوم أكابر المصورين ثم تفصل أثوابها على مثالها وتضرب فى شوارع باريس غير محتفلة وعاليها وشامخ الملائكة التى رسمها (جوزولى) و (فرا انجليسكو) و (بورن جونز) واضرابهم

المرأة التى اذا خطرت فكأنها أميرة من أميرات عصر النهضة أو عذراء

فأنت من عذارى المساء . أو المثل الحى لما يجب أن تكون عليه عروس الشهر
الملهمة المبتغاة !

اطمأن إليها ما ترلنك واستحكمت الصلة بينهما وبدأت حياتهما الجديدة ملحة
نادرة من ملح السعادة . بل معجزة من معجزات التفاهم والسلام
كانت تحنو عليه حنو أم على ولدها . تسهر على راحته . تسكاؤه بعين عنايتها
تسهل له سبيل العمل ، تهفد شؤون البيت . تخلق له الجو الذى يعبده ولا
يستطيع بدونه أن يفكر ويكتب : جو الصمت ، الصمت الشامل العميق المحاط
بالالغاز . الصمت الداوى بحمى التأمل . الصمت الذى كانت تفهم جورجيت
أسراره وكنوزه وتحدث عنه الشاعر فى رسائلها وتسوقه إلى بحثه وتحليله وتمزيق
الحجب عن غوامضه
وكان عقلها النابه يطر الكاتب أغرب الأفكار . وأدق الملاحظات . وأعجب
الحقائق فى غير ما كلفة أو عنق

أما هو فقد كان مشدوها بها لا يعرف كيف يخاطبها . أو يتودد إليها تودد
الذكر الانثى . أو يعبر لها عما تكنه نفسه فى عبارات ملتبه كزاجها . كان يقف
بها وقفة المتفرج المأخوذ . يستمرى أحاديثها ويعب فى فيضها . يروى به قلبه
وعقله . وهو مغرق فى صمته . راسخ فى هدوئه منطو على نفسه . يخشى الكلام
لئلا تتبدد أفكاره . ويخشى اظهار الحب لئلا ينمو الحب ويصبح شغله الشاغل
فينصرف اليه ويهمل واجب الفن والادب والانتاج ! . . غير أنه فى رسائله إليها
كان يفرج عن نفسه ويستفيض فيقول :

« فى خوف من رؤيتك ثانيا . على أنى لا أتمنى غير هذا
« أنى أخاف على حين أن يموت من جماله نفسه . كل شيء يقع لنا جديد وغير
منتظر . لم نتخيله لا فى الحلم ولا فى الحياة . »

وكانت تقول هى فى رسائلها :
« أنى أربغ فى سعادتك قبل كل شيء . أربغ فيها ولوتعارضت مع سعادتى .
مذ عرفتك أثرتك على نفسى . لأنى لا احب الا الخير الذى أستطيع أن أفعله ولقد
أدركت أن فى وسعك فعل الخير أكثر منى . . . »

« انى احبك كما يحب الله . ياموريس . احبك كامرأة حقيقية فيها السكينة
من الالوهية كى تحب الها ! » وايضا :

« ان حبنا ليس كحب الآخرين . ليس زهرة صغيرة غرستها شهورتان
زهرة تذبذب من الارض وتوجه نحو الشمس ثم تنحني وتموت . انه نفسه ارض
وسماء وطبيعة ! »

ولما أن كان يبلغ بالشاعر الاعجاب مبلغه كان يكتب للمرأة التى لم يكن يرى
فيها غير رمز الوحي والكمال هذه العبارات :

« لم أرحنى الآن فى أية رسالة من رسائلك جملة غير حية . جملة لم تحي فيك
وهذا لا يتأتى الا للارواح ذوات النصوص التام ، للمخلوقات ذوات الحقيقة
العميقة والنور النقي . وهذا فى عرقي أعظم مميزاتك بل هو السبب الذى يخيّل الى
أنى احبك من أجله فى جنون

« يبدو لى أنك من أشد الكائنات حياة

« أنت مخلوقة من حياة ونور

« كل ما تمسّنه بيديك يصبح نوراً

« ليس فى وسعى أبداً أن أردد فى قوة كافية كل ما علمتني اياه ! »

كان ما ترلنك يكتب هذه الكلمات ولكنه لم يكن ليفوه بمثلها . . . كان
يبدى من الحب فى رسائله أضعاف ما يبدى فى حديثه وهظهره . . . كان من السهل
عليه ان يحلق فى سماء الشعر ويتمثل جورجيت ملسا كريماً ويناجيها ويقدمها
ويقاسم بنفسه اليها ، فاذا ما هبط الى الارض وشاهد المرأة أمامه مخلوقة من لحم
ودم ، انعقد لسانه ، وفارقه شاعريته ، واستولى عليه الصمت ، وعامل جورجيت
كما يعامل أى انسان ! . . لم يخاطبها يوماً بنفس العبارات الملتهبة التى كان يضمها
رسائله اليها وهو قابع فى زاوية مكتبه يفكر ويتأمل . كان أحب اليه أن يؤاف
من غرامه قصيدة شعرية شائعة على أن يحيا هذا الغرام . كان أحب اليه أن يذكر
حبها وهو بعيد عنها مخافة أن تستأثر به . وتسلط عليه وتحرمه الاستمتاع بجمال
غير جمالها . وكأنما كانت خطباته اليها نفثات يرسلها إلى كائن فى عالم الخيال لا الى

أسرأة ذات جسم وروح . كان ماترلنك عجمياً في حصن صمته ، ساجحاً في ضباب
فكره منصرفاً إلى عمله . يحذر فتنة عشيقته ويقاومها ، يفرغ من الكتابة فلا
يهرع الى المرأة يلتبس في أحضانها القوة والساوى بل يطوف بارحاء البيت ، أو
يلهو في الحديقة كطفل يقطف الثمار ويروى الازهار ويقوم اعوجاج الشجيرات ،
أو يتمطى ويأخذ في القيام بعدة تمارين رياضية ، أو يصلح أدوات المنزل كتنجار
وحتى في تلك الساعات العذبة . في تلك الساعات الفريدة لما ان كان يخرج
وجورجيت إلى الزمة كان يحتفظ بصمته أيضاً . فيعلق على الأشياء والأشخاص
بابتسامة أو كلمة . يرى المنظر الجميل فيمنحه نظرة عابرة ثم يفر منه تواء فتستوقفه
المرأة وتتشبث به وتود أن تتذوق هذا الجمال طويلاً برفقته ولكن يتأفف
ويقول لها : « يجب ألا نستنفد الجمال أبداً . » ثم يمضي في سبيله غير محتفل
كان مقتنعاً بالجمال الذي سوف يخلقه هو . كان يتجنب الإفراط في مشاهدة
الطبيعة لئلا تشوش عليه خياله أو تشعره بهجزه عن تصويرها أو عن إضافة
جمال فنه الى جمالها . . .

وهكذا اصطدمت جورجيت بشخصية العبقرى الخفية وأدركت بسليقتها
أن الفضائل التي أحبت من أجلها هي التي قد تهدد في النهاية هذا الحب وتقته
أحست به على حقيقته . رجل متبرم متجهم مستوحش نفور يتذرع بالصمت
لا لينمى في نفسه احساسه وفكره فحسب ، بل ليقصى عنه فضول الآخرين . ليقم
سداً منيعاً بينه وبين عواطف الآخرين ليتردد عنه أفراح الناس واتراحهم فلا
تكرر عليه مجرى العمل الأدبي العظيم

العمل الأدبي ! أجل ذلك هو دينه وغرامه وواجبه ! انه يسيل في قصصه
حباً وبعز عليه أن يلقى جورجيت بهبارة حب قوى واحدة !

انه يدخر الحب والعطف والركة والحنو وسائر الانفعالات للعمل الأدبي
العمل الأدبي الذي هو في نظره كل شيء

ولو أنه شعر في بدء العلاقة بأن حبه لجورجيت هو الحب العميق الصحيح ،
الحب الذي لن يخدمه العمل أو يفنيه النظام . والذي لا بد مقترن بالمظاهرات

العاطفية وما يعقبها من فوضى العمل والاتاج ، إذن لما تردد لحظة في اقصاص هذه المرأة عنه وخلق العاطفة في صدره ، والاتجاه إما الى الدعارة واما الى التصوف كي يستعيد هدووه ويستطرد العمل الأدبي في طمأنينة وصفاء . . . كلا . . انه لم يحب حباً انسانياً صادقاً . لم يحس لا بالقاق ، ولا بالحيرة ولا بضرورة وجود حبه الى جانبه . ولا بألم الفراق ، ولا بعذاب الغيرة ، ولا بنعيم الشهوة وجحيمها

لقد كان يحتقر كل هذا ويمقته ، يحارب في نفسه وفي سواه ، ويجتهد في ان يظهر خيلته منه . وبما انها كانت قد تورطت في علاقتها به ، وكانت تود ان تمنحه المساعدة اللازمة للعمل ، وتتوق لازدهار خصائصه الخالقة على يديها ، وبلوغه الشهرة والمجد تحت تأثير وحيها ، فقد أطاعته طاعة عمياء ، وكبحت جماح عواطفها بما يريد ، والتزمت الصمت مثله ، واعتادت العيش وفق هواه ، بلا حب انساني صحيح ، ساكنه هادئة عاقلة ، آلة مسخرة لخدمة العبقرى !

وكانت سعيدة بذلك لا تشكو ولا تتميل ، لا تفكر في حاجاتها الخاصة قدر ما تفكر في حاجة الشاعر اليها ، تنصح الخادمة بتخفيض صوتها والتمهل في سيرها تصرف الدخلاء والمستطلعين ، تمشي على اطراف قدميها ، تفتح الابواب وتغلقها في رفق بخافة ان يفزع العبقرى فيكف عن العمل فيذهب جهد اليوم هباء . . . !

ولكى تشبع إحساسها الفني ولا تحمل الكاتب عبء الانفاق عليها ، التحقت بالمسرح الغنائى وجعلت تمثل في الاوبرات الكبيرة وظفرت بالشهرة والمال هي أيضاً . غير انها قدست نفسها في النهاية لخدمة الشاعر . فكتبت البحوث عنه ، وطافت بمختلف العواصم تلقى المحاضرات عن أعماله ، ثم تخلت عن المسرح الغنائى وانصرفت الى تمثيل روايات ماترلنك -- من مؤلفة ومترجمة -- ك (مونا فانا) و (مريم المجدلية) و (مكبت) وغيرها

وقد يتسامل القارئ ماسر اخلاص هذه المرأة للكاتب فيخيل اليه انه الحب العظيم يحفرها للمجد والتضحية ، نعم ولا . ان جورجيت كانت تحب موريس

ولا تحببه ، تحب الصورة الشعرية التي صاغها منه خيالها . تحب أسلوبه وفلسفته ، تحب جو الادب العالي وما فيه من نزعات شاذة ، وتصورات خارقة وتأملات سامية ، وألوان جمال طريفة تخلقها نزوات الغرائز والميول والأحلام

هذا ما كانت تحبه فيه . وهذا ما أخلصت له من أجله ، وما أنكرت ذاتها لأحيائه في عمله ، ولكنها كانت امرأة ، وكانت في حاجة إلى حب آخر ، حب تقترب فيه مطالب الروح بمطالب الجسد ، وكانت مستعدة لمبادئ مائر لك هذا الحب لو أنه نزل بعض الشيء عن عبادته للأدب ، ونظر إليها نظرة هوى بشرى صحيح ، ولكنها أعرض عن احساسها النامي ، وأحبها كطيف من أطياف الجمال والفن ، واستخدمها كأداة وحس فقط ، فارتدت عواطفها إلى أطواء نفسها وظلت تتجمع هناك وتتربص ثم انطلقت فبددت خيالها ودمرت حللها الجميل تدميراً ! وكان المبقرى في هذه الأثناء يستغل حسنها وصباها وذكاها . يستهبط الهاماته من وجودها الفني الرائع ، يستلح أفكارها وأدبها ، ترسل اليه الخطابات فيستمتع منها بعض الخواطر العميقة فلا يتردد في الاستيلاء عليها ، ومزجها بمادته ، وإخراجها في كتبه كأنها من بنات فكره الخاص .

ان (الحكمة والقدر) و (كنز المتضعين) و (أجلافيين وسيليزيت) كل هذه المؤلفات فيها من آراء جورجيت وخواطرها ما انتفع به الكاتب وعرف كيف ينسبه لنفسه ويطبعه بطابعه ، ومع كل هذا فهو لم يستطع أن يحبها الحب الذي كانت تشتهي ، لم يشفق عليها ، لم يرحمها ، لم يعترف لها بحميل

وما ان تقدم في السن ولاحت في جو كهولته فتاة في السابعة عشرة .. كانت قد مثلت دوراً صغيراً في إحدى رواياته .. حتى فتن بسحر شبابها ، وبدا له كأن في وسعه تجديد عقله واحساسه على ضوءها ، فرحب بمقدمها ، وأنزلها من داره منزلة الصديق المنقذ ، وجمع بينها وبين الأخرى في بيت واحد ثمانية أعوام ، ثم جعل يستمتع لوشاياتها ، ويغض الطرف عن دسائسها ، حتى انتهى به الأمر إلى الاذعان لها والنزوح منها والانفصال عن جورجيت لوبلان !

وبعد ان كانت جورجيت كل شيء فى حياتها أصبحت لاشيء . بعد ان كانت المعبودة الملهمة أصبحت المرأة المنبوذة التافهة . المرأة التى هدم القضاء هيكل حبها وشردها وسلط عليها أشباح الفقر والخيبة والشيخوخة تطاردها وتسمم آخر ما بقى من أيامها !

وهكذا قدر على مخلوقة ضعيفة ملهبة الخيال ، حادة المزاج ، ساذجة القلب والعقل ، أن تقع بين مخالب عبقرى اعتصر حياتها . وامتنع كل ما فيها من شعور متوثب . وفكر وقاد . ثم مجتهدا نفسه فالتقى بها فى عرض الطريق دون ما رحمة أو تبكيت ضمير !

ولكن من السبب فى هذا ؟ وهل الذنب فيما أصابها ذنب ماترلنك ؟ وهل لنا أن نتهمه بالشر المتأصل والجحود الفطرى والقسوة المتعمدة ؟ . . وهل لنا أن نحكم عليه ؟

كلا . أنها العبقرية تعيش لنفسها فقط . لا لصاحبها ولا للآخرين ! وما العبقرى إلا نصف إله لا يستطيع أن يخلق الا اذا سلب ! يأخذ من الطبيعة كل ما تصل اليه يدها ليرده اليها أصفى جمالا وأمتع لذة وأوفر غنى !

وبما أنه يعمل للخير العام ، ويحترق ، ويضحى بذاته فى سبيل الانسانية فهو يستحل تضحية غيره فى سبيل الانسانية أيضاً . لذلك هو بهزاً بأقدس الروابط وأنبل الاحساسات متى شعر أنه قد استنفد عصارته وفاز بنصيبه منها وأنها قد تصبج ذات يوم عقبة كوء وداً فى طريق ذهنه الطامح إلى مواصلة التجدد ومواصلة الانتاج ! فهو يحب الانسانية ، ولكن كفكرة ، كمجموع ، وكثيراً ما ينفر منها ويكرهها اذا ما تمثلت فى فرد مهمما كان محبا ومهمما كان محبوبا ، اذ الفرد يقيد العبقرى ، ويد محيطه الفكرى ، ويغله بالفروض الاجتماعية ، وبشوه بنقصه مثله الاعلى ، ويستأثر بذهنه ويصرفه عن العمل

فالفرء اذن أنانى . والعبقرى يعرف ذلك فيقابله أنانية باثانية . . .

ولكن أنانية العبقرى — بالنسبة الى الغرض العظيم الذى تسعى اليه — قاسية فظيعة وحشية . فهى التى أشعلت المأساة بين ماترلنك وعشيقتة ، وهى التى قبضت على المرأة المسكينة بايد من فولاذ وأخضعها ثم شرعت فى تعذيبها واستغلالها مدى عشرين سنة كاملة !

نظرات في العالم الحاضر

Regards sur le monde actuel

تأليف بول فاليري عضو الاكاديمية الفرنسية

بول فاليري شاعر قبل كل شيء لا يستلهم الطبيعة بغير نزته لحسب . بل بعقله المتوقد أيضاً

فالعواطف البشرية تبدو له مضطربة مشوشة ساجدة في جوارح الظلمات . فيقبل عليها مستهيناً بفنه يبدد به ظلامها ويقر في جوانبها النظام . والفن في عرقه مجهود عقلي يشرف على الاحساس ويسوده ، ويكبح الأعصاب ويهديها ، ويوزع الاضواء والظلال ويضبط النسبة بين الخيال والواقع ، ويحفظ التوازن بين ظلمة الغريزة ونور العقل

وليس معنى هذا أن تزاحم العواطف واختلاطها وتضاربها وفوضاها لاحتل لها في شعره بل هي قائمة تعصف بالقصيد كما تعصف بالحياة . ولكن من خلال حدود مرسومة ، وخطوط دقيقة ، وأوضاع متناسبة متسقة تشعر بان هذه الطبيعة الجائحة قد تراخت وخضعت للفنان الذي أحس قواها الغامضة بفطرتة النيرة واستطاع ان يروضها بعقله الجبار

ومن هنا كان بول فاليري شاعراً وفيلسوفاً ورياضياً يسمو بشعره في بعض الأحيان الى اوج يخيّل اليك وأنت محلق فيه انك تستمع الى شاعر جمع في نفسه اضطراب القرن العشرين وصفاء الروح الاغريقية واتزانها

وشاء هذا الرجل أن يهبط من سمائه الى أرضنا وان يهتم بمشكلات العصر الحديث ، بالتاريخ والاجتماع والسياسة ومصير أوروبا وحضارتها ، فوضع كتابه الاخير المسمى « نظرات في العالم الحاضر »

ولم يشأ أن يكتب في هذه الموضوعات بحثاً مستفيضاً يلم فيه بالدقائق والتفاصيل ويعرضها في أسلوب مضجّر ثقيل كاساليب معظم العلماء والباحثين ؛ بل أثر الخطرات الصغيرة التي تسجل الفسفرة الهارضة والاحساس الطارىء ، وما أحدثاه من هزة عميقة بعيدة التأثير . وكأني بالشاعر لم يستطع ، حتى في حديثه عن مشاكل المجتمع ، ألا أن يكون شاعراً . فجاءت خواطره أشبه بمقطوعات شعرية فيها من اللمعة والموسيقى ودقة الفكر ما يفنّ الفنان والعالم معاً . ولقد كدّت ألخص هذه الخواطر في دراسة عادية ، ولكنني راجعت نفسي ورأيت ان الدراسة تستلزم شيئاً من المنطق والتسلسل والحجج والانسجام ، فحشيت أن أخون الرجل وأزيف على القراء طابعه ففضلت أن اتبع طريقته وانقل صفوة خواطره في أسلوب الخواطر نفسه

نحو سياسة أوربية جديدة

يكاد لم يبق في العالم ركن لم يكتشفه رحالة ولم تقع عليه عين الانسان المختصر لقد استطاع هذا الانسان أن يقيس أجزاء الدنيا ، ويهتدى الى قوانين حركتها ، وينبش كنوزها ويستغلها أتم وأوفى استغلال . .

فهو بذلك قد ضاعف علمه ونشر قوته وسلطانه . وأحس بعظمته تنمو وتزدهر يوماً بعد يوم

ولقد كان العالم منقسماً فيما مضى الى كتل يناوىء بعضها بعضاً . وكانت السياسة قائمة على الامعان في فضل هذه الكتلة . وتأليب بعضها على البعض الآخر . أما اليوم فقد ترابطت المصالح والافطار ، وأصبحت السياسة القديمة مضطرة بحكم هذا الانقلاب الى تبديل أساليبها ، والنظر الى العلاقات الدولية كاشياء معقدة متشابكة ، والى العالم كوحدة كبيرة . بل كجسم حي لا يلبث أن يصيب الداء عضواً منه حتى يحس بالآلم الجسم كله

والفضل في هذا الانقلاب يرجع الى العلم والصناعة بوجه عام والى أوربا بوجه خاص . فقد أسست أوربا عظمتها على اكتشاف القوانين والطرائق التي سمحت للانسان بمعرفة أسرار الأرض وامتلاكها

ولكن الظاهرة الجديدة التي لاحت في الافق الآن هي أن العلم الحديث الذي ما برحت أوروبا تسهر عليه وتنظمه وتضيف إليه كل مستحدث طريف تتمتع به عنه عبقریات أبنائها ، هو بطبيعته كوسائل المتمدن ، بل هو قوة تحمل في تضاعيفها خصائص الذبوع والانتشار ، قوة لاتخاطب الاحساسات المتمايزة ، والامزجة المتباينة ، والوراثات العاطفية والدينية المختلفة — كما يفعل الفن الذي قد يعسر تقديره وفهمه على بعض الشعوب المتأخرة — بل العلم قوة تخاطب العقل وحده ، وقوانين العقل منطقية تطبيقية رياضية محضة من السهل ان يتفق عليها السكل ويهتقها الجميع نظراً لقوائدها العملية السريعة الظاهرة

فاوروبا قد أوجدت العلم الحديث ، ولكن هذا العلم قد شاع واستولت عليه قارات أخرى تمتاز بوفرة عدد سكانها ، وغليان دم الشباب فيها ، ونزعتها المباغثة الى التحرر والنهوض ، واستعدادها لاستخدام أسرار العلم في سبيل الانتقام على أوروبا وهدم عظمته وسلطانها

وأبلغ مثال على ذلك ما نشاهده اليوم من سيطرة أمريكا الاقتصادية على أوروبا وبقطة الشعوب الاسيوية كاليابان أو روسيا على دوى المعامل والآلات ، ولفاج البعض منها كالهند والصين مثلاً لثبيت دعائم استقلالها الاقتصادي والفوز باستقلالها السياسي ، ووثبة معظم أمم الشرق الأدنى وأخذها بأسباب الحضارة الاوربية وسعيها المطرد الى التغلب على مستعمرها ، والظفر بحقها في الحياة والحرية

فواجب أوروبا والحالة هذه — اذا ما رغبت في البقاء — أن تجتهد في احداث انقلاب في خططها السياسية يتلامم والانقلاب الذي أحدثه العلم في العلاقات بين مختلف الأمم

عبث التاريخ

نما لا يقبل الريب أن العقول المنصرفه إلى التفكير في الغد إنما ترى الحاضر على ضوء الماضي وتهتدى بحوادث التاريخ لمعالجة شؤون المستقبل وهذا هو الخطر

إذ ليس هناك أى فارق بين التاريخ يكتبه مؤرخ كتابسيت أو ميشيليه أو فنان
كشكسبير أو بلزاك

التاريخ نقل وسرد وفن . وبقدر ما يكون المؤرخ رشيق العبارة ، فالتاريخ
الاسلوب ، بقدر ما يؤثر فينا ، ويقنعنا بحقيقة الوقائع التي يرسمها
على أن في حوادث التاريخ معجزات يقف عندها المؤرخ حائراً لا يعرف لها
سبباً ولا تعليلاً وهذا ما يرغب القارىء على الاشتراك في التاريخ بنفسه وتفسيره
وفق هواه . وتقرير ما هو حقيقى منه وما هو خيالى . . .

والمدهش أن يكون التاريخ فناً متعلقاً بفكر المؤرخ وعاطفته ومزاجه
وأسلوبه ، وبشخصية القارىء وإحساسه وميوله ، ثم نتخذ منه أداة للحكم
على الحاضر ، ونسترشد بسير حوادثه وتطوراتها وتفاعلاتها لتنظيم المستقبل
والواقع أنه لم تعد ثمة علاقة وثيقة بين الماضى والحاضر

وهب أن فلسفة التاريخ القديمة كانت صحيحة فهي قائمة على نظرية أن
العالم كتل متفرقة مختلفة المصالح لا تنفك تتناوب وتتناحر في حين أنه اليوم وحدة
اقتصادية إن لم تطبق عليها فلسفة غير تلك أصابها الانحلال والموت لا محالة
والمشاهد في أوروبا أن عواطف ساستها وأطماعهم إنما تنشأ من مطالبات
التاريخ ، وذكريات وقائعها ، والرغبة في تطبيق قوانينها العتيقة على دنيا جديدة
لا تمت إليها بأية صلة

والسياسى الأوربى إذا ما عرض له حادث خطير لا يفكر في أن هذا الحادث
فريد في نوعه وأنه يرتبط بعدة حوادث لم يعرف التاريخ لها شبيهها . وإنما تتطلب
حلاً مبتكراً جديداً . لا يفكر في هذا ، بل يرجع بذاكرته الى ما وعته من
محفوظات التاريخ يستهديها الفكرة والعمل ، هارباً من الابتكار والحقاق ، متجنباً
مقابلة الحادث الجديد بحل جديد من نوعه يبتدعه ابتداعاً ويوفق بينه وبين

مطالب الساعة

وهكذا . تل التاريخ ذهن السياسى ويستعبده . وهكذا تردد الانسانية اليوم
ما فعلته بالأمس بل هكذا يتقدم العالم ويتجدد ويظل مع ذلك محكوماً بروح
التاريخ الغابر وفلسفته البالية . . .

ويسوق بول فاليرى عدة أمثلة للدلالة على صحة نظريته فيقول :
ولو أن شارل الاول لم يعدم لسانه في الامكان أن يعفى عن لويس السادس
عشر . ولو أن بونابرت لم يفسكر طويلا في تحويل نظام الحكم الرومانى من
جمهورية الى امبراطورية تستند الى السلطة العسكرية ، لما فكر في تنصيب نفسه
امبراطورا

لو أن روح التاريخ القديم وأساليه لم تكن مسئولية على بسمارك في
مؤتمر برلين لما اقتصر على التفكير في مصلحة بلاده ضمن حدود أوربا فقط .
ولما دفع بالدول الاوربية الى الاهتمام بالمستعمرات والتنازع عليها ليقبها متنافرة
متخاصمة دون أن يفتن الى أن المانيا سوف تطمح ذات يوم الى الحصول على
نفس تلك المستعمرات التى زينت للاخرين امتلاكها فتجتمع الدول كلها عليها ف
وقع في الحرب الكبرى

فبسمارك قد فكر في المستقبل ، ولكنه لم يفكر في امكان وجود مستقبل
جديد آخر غير ذلك الذى استوحاه خياله من روح التاريخ وحوادثه

وما لاشك فيه أن التاريخ أشد فتكا بالأمم من الأوبئة . فالقادة يفسرونه
وفق أهوائهم والشعوب تحلم في ظلمته بالعظائم غير المتناهية ، وتنشئ بالمفاخر
الحربية الرائعة ، وتذكر الخصومات الوراثة الفاجعة ، وتنمى في نفوس الابناء
والاحفاد غرائز البطش والاضطهاد كما هى الحال فى ايطاليا اليوم .

الفكر الاوربي

فى الفكر الاوربي تناقض عجيب . فبينما هو علم لا يشوبه الغرض ، وضمير
حر صارم نزيه وعقل باحث ناقد مدقق ، اذا به يستحيل فى اذهان الساسة الى
اصنام فارغة وغرائز هائلة وسلسلة مطامع وفواجع لا نهاية لها

ساسة أوربا وخيانتهم

ما يلاحظ فى تاريخ أوربا انه لم تستطع دولة من دولها أن تنشر سيادتها
وتحتفظ بممتلكاتها أكثر من خمسين سنة
لقد فشل ساستها العظام جميعا . بل ان أذكاهم وأمههم وأسعدهم قد جلب

على أمتة الخراب والدمار

وهذا شارل الخامس ، ولويس الرابع عشر ، و نابليون ، ومترنيخ ، وبسارك ،
لم تعمروا جهود معظمهم أكثر من أربعين أو خمسين سنة
بينما كانت العقول الأوروبية الممتازة تسمى جهدا استطاعتها لتكوين رأس مال
أوروبا الثقافية . كان لا ينفك ساستها يعملون على خيانتها بمنح الشعوب التي فكروا
في إخضاعها مختلف الأدوات والطرائق التي تقوم عليها عظمة أوروبا

فكفاح أولئك الساسة من أجل نشر حضارتهم وأرسالهم الاختصاصيين ومعهم
الآلات إلى بلاد غريبة وفتحهم المدارس هناك وتنظيمهم الجيوش والاساطيل
كل ذلك لم يكن ليتفق والسيادة الفعلية على العالم التي كان ينزع إليها مثقفوا أوروبا
وعليه فقد أصبحنا اليوم وإذا بالقوى الأوروبية قد تسربت إلى أمم وقارات
أوفر من أوروبا عدداً ودونها ثقافة

وان من يفكر في أن مساحة القارة الآسيوية هي أربعة أضعاف مساحة أوروبا
وان أمريكا لا تقل عن آسيا اتساعاً وان سكان الصين لا يقل عددهم عن سكان
أوروبا وان تعداد اليابانيين يربى على الألمان وان أولئك جميعاً يتوجهون بقلوبهم
وعقولهم نحو الأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية لا بد يشعر بالخطر الهائل على
مصير أوروبا

فيوم ان تكتشف في آسيا المناجم وتغص مدنها بالآلات والمصانع يوم ان
تخرج تلك القارة من الفولاذ والحديد والاقشة والورق والمنتجات الكيميائية
كميات وفيرة تبيعها بأجناس الأثمان نظراً لملايين الأيدي العاملة فيها واعتدال
مطالبها وانتشار الوسائل الصحية الحديثة بينها ، في ذلك اليوم قد يشعر ساسة
أوروبا أن سيادتهم القديمة ، لا أثر لها ، وان الغلبة للعدد وتفوقه وانهم قد باعوا
حضارتهم من حيث أرادوا لها الفوز والحياة . . .

الشرق والغرب

ان الفارق بين الأوروبي الحديث والشرقي القديم ان الأول يحيا في الساعة
التي هو كائن فيها والثاني يعيش في الابد

الاول يضيق فسحات العالم ليفهمه أو ليعتقد أن في وسعه أن يفهمه ، والثاني يتناول الطبيعة كلها في تأمل شامل قوامه الدين والشعر والفلسفة
الاول ينشد السرعة والدقة والغرابة والطرافة ، والثاني يرى هذه الأشياء محيرة مقلقة باطلة

الاول يخلق فيهدم ثم يعود فيخلق فيهدم ، لا يعرف الاستقرار على فكرة أو عقيدة ، وكأئما اللعب بالأفكار والنظم واستبدال الواحد منها بآخر ، هو في عرفه قانون التطور . أما الثاني فمحافظ شديد التمسك بماضيه ، يقف بالغرب متفرجا باسمها ساخراً يتأمل هذه التطورات المتدركة كما يتأمل شاعر صوفي فقائيع المساء ...

الاول يعمل لهذا العالم ، والثاني ينشد الخلود في عوالم أخرى
الاول يعبد القوة ويقدس المادة ، والثاني يمجّد الأمثلة الروحية العليا
ولقد ابتدع الصينيون البوصلة والبارود والطباعة ولكن أوربا هي التي استولت على هذه السكنوز وعرفت كيف تستخدمها وتغير بها وجه العالم
وهذا يدل ابلغ الدلالة على تخاذل الفرد الشرقى القديم وإهماله الأخذ بأسباب الحياة الواقعة والمضى في إصلاحها وتبديلها ، ترفعاً منه وضناً بروحانيته عن النزول الى مستوى الحقائق العملية اليومية وفروضها

تلك كانت نزعة الشرق فيما مضى ، أما اليوم فقد تبدل الأمر ونبتت في رأس كل شرقي مشقة ناشئة فكرة الجهاد العملي والثبات في وجه أوربا والاقتران بها ما استطاع الى ذلك سبيلاً

وهكذا اختلط الشرق بالغرب وتوحدت روح الحضارة في العالم الى أن تحين الساعة التي يكمل فيها نضوج الشرق فينهض ويسكافح ويتغلب وعندئذ قد يبقى على الحضارة الصناعية كما هي في شكلها الحالي أو قد يطبعها بطابع جديد ليس في مقدورنا الآن تحديد خصائصه والتنبؤ به

تعليق

هذه أهم الآراء التي يقوم عليها كتاب الشاعر والمفكر بول فاليري . فما الذي

نستطيع أن نفهمه نحن الشرقيين منها؟ وأى درس تلقينه علينا؟ وما الذى يرمى إليه كاتبها واية المخاطر البعيدة يحاول أن يوجه اليها نظر أبناء جلدته؟

فهل هو باحث نزيه حري سجل الاغراض الاجتماعية والسياسية فحسب . أم هو من محبي السلام . أم هو من تلك الطائفة المعروفة التى ترسل اللفظ المهسول والكلم المنمق تستر وراءه — فى مهارة وخبث وذكاء — شر ما يخامر النفسية الاوربية من نزعات السيادة والاستعمار ..؟

الواقع أن الرجل لم يكشفنا برأيه صراحة ، ولم يرسم الطريق الواضحة التى يطلب الى أوروبا أن تسلكها

لقد هدم سياستها العتيقة ، وهدم التاريخ الذى تستمد هذه السياسة من منطق حوادثه أصولها . ولكنه لم يرشد الى شئ . ولم يبشر بالخطه المثلى ، ولم يضع للغرب أى برنامج سياسى جديد

فهل معنى هذا أن ليس للرجل هدف يسدد نحوه سهام أغراضه ، وليس له منزع خاص نستدل عليه من مجموع أفكاره ويتراءى لنا من خلال خواطره اللامعة الصقيلة التى يضفى عليها حلة شهرية رائثة ؟ ..

يلوح لى ان بول فاليرى بالرغم من دعواته الى تجديد السياسة الاوربية وتبديل اتجاهاتها بما يتفق وروح العصر . لا يزال فى أعماق نفسه أوربيا صميميا . أى ان مصير الانسانية لا يهمه وانما مصير أوروبا وحدها هو الذى يشيع فى نفسه الغضب والقلق والتمرد

هو أوربى بدافع عن أوروبا ويلفت نظر أبنائها ، الى ما يتهدد مستقبلها ، ويحاول أن يصلح من سياستها التقليدية لمصلحتها هى للمصلحة الانسانية

ولكن من الذى أثار فى نفسه هذا الاحساس . وضد من ينادى الرجل بالاصلاح ؟ أجيب فى غير شك أو تردد : ضد الشرق والشرقيين

أنه يخشى على أوروبا غزوة الشرق المسلح بنفس سلاحها

أنه ينظر الى آسيا كهو لدود ينمو ويتضخم ويتحضر ويتحضر شيئا فشيئا

وليس على آسيا وحدها التي يخافها بل هو يخاف مختلف أمم الشرق العربي التي تنزع نزعتها

وعليه فهو يهيب بشعوب أوروبا أن استيقظوا ، وانعموا النظر فيما يحيط بكم ، واشرفوا على المستقبل البعيد ، وانبدوا المنازعات القديمة ظهريا ، وكونوا جبهة متحدة ضد الشرق ونهضته . .

وفي الواقع بماذا نفسر جميع تلك المحاولات التي يقوم بها بعض ساسة أوروبا الآن لتهيئة الاذهان لقبول فكرة اتحاد الدول الأوروبية الا بانها جهود ترمى الى مقاومة نفوذ امريكا من ناحية وتحطيم أجنحة الشرق من ناحية أخرى ؟

ان كل اتاد تحققة أوروبا انما يدفع الشرق ثمنه وهذا مايجب أن نفهمه . . . وأنا مع عظم حبي لبول فاليري كشاعر وفنان ، ومع تقديرى لسكتابه الاخير ، لأستطيع أن أتمالك احساسى بالنفور حين اسمعه يقول أن ساسة أوروبا قد باعوا حضارتهم للشرقيين وانهم لم يؤدوا الرسالة الاوربية حقها من الوفاء ، كما انما الحضارة يجب أن تكون وقفا على جنس دون جنس وقارة دون قارة وفكر دون فمكر ! ...

أليس هذا هو الاستعمار بهينه ؟ . . .

فاين هذا من كلام أمثال رومان رولان وولز واينشتين وتاغور . أولئك الذين ينادون بادماج العالم فى حضارة واحدة والعمل على ابتكار أنظمة حكومية انسانية تكفل الراحة والرقى والسلام للجميع ؟ . . .

أن حياة أوروبا ومستقبلها ليس فى أن تتحد فحسب . بل فى أن تتحد لتستخدم علومها وحضارتها وثقافتها لايجاد تلك الأنظمة أو ذلك النظام الانسانى الجديد الخليق بحضارة انسانية واحدة

أما الاثرة الاجتماعية والتعصب العنصرى والتحالف لمجرد المصلحة وضد الآخرين ، فلن يكون من شأنه الا أن يضاعف فى السكتلة الاخرى احساسها بالحياة ، ويحفزها للتحالف والتنازر هى أيضا . وعندها قد تنعكس الآية . وقد يكون الفوز من نصيب الشرق الناهض العامل الطموح كما يتنبأ بذلك بول فاليري نفسه !

مرض الكلام

Le langage et la Verbomanie

تأليف العلامة أوسيب لورييه

جعلت أنقل بصرى بين مختلف الكتب المترجمة على رفوف مكتبتى يحنو بعضها على بعض كأن كلامها يسر الى الآخر شكائات طويلة ما لها من نهاية . . .

ولفت نظرى هذا الكتاب . وكان متأكل الظهر، ضئيل الحجم مغبر الاسم . مندسما بين رفاقه يحاول أن يشق له فى جوف المكتبة مسكناً خفياً يتوارى فيه . ولكننى أسرع فأنزعته ونفضت عنه الغبار المتراكم وفتحته ثم قلبت منه بضع صفحات فأخذت وانحيت على نفسى باللائمة كيف أهملت مطالعته حتى اليوم . ثم استقر رأى على تلخيصه

وكان سر إعجابى بهذا الكتاب أن موضوعه شائق طريف وأن العلة التى يتناولها مؤلفه بالدرس والتحليل إنما هى علة الفكر الشرقى فى مظاهره التى نشهدها اليوم

أما مؤلفه — أوسيب لورييه — فقد كان أستاذا بجامعة بروكسل . وهو من أولئك المفكرين الذين يبتدعون النظريات ويجددون فى دراسة الادب وفى الدعوة الى الإصلاح الاجتماعى ومن أشهر أعماله كتابه عن القصص الروسى ليون تولستوى وعن المؤلف المسرحى هنريك إبسن وعن التطورات الاخيرة لنظام الحكم الجديد فى روسيا

والكتاب الذى نحن بصدده يدور حول فكرة رئيسية على جانب عظيم من الخطورة ، وهى أن الكلام اذا كان ظاهرة طبيعية سليمة متى قصد به التعبير عن

الفكر ، فهو ظاهرة مرضية متى أرسل جزافا ولم يقصد به المتكلم التعبير عن أفكار دقيقة ذات معنى معين

فقد يتحدث إليك بعض الناس وقد يسرف في الحديث ويسترسل في الثثرة فاذا ما حاولت الوقوف بالضبط على ما يقصد اختلطت عليك المعاني وضاعت في غمرة الالفاظ وتبين لك أن الحديث كان لغواً باطلاً وان محدثك لم يقل في الواقع شيئاً

هذه الظاهرة نلاحظها في كثيرين ولكننا متى تمسكنا من صاحبها . وأفلتنا من رقابته استحالنا الى مرض يهدد الفكر والمجتمع معاً
وبقدر ما يكون المصاب بها من الأشخاص الممتازين بقدر ما يالحق الضرر بالفكر والمجتمع

وفي وسعنا أن نتصور العلماء والأدباء والاساتذة والمحامين والخطباء الموالعين باللفظ وسحره ، والجل ورينها ، ودوى الكلام المنطق يخالب السامع أو القارئ ويباعد بينه وبين الحقيقة ويطنى على جوهر الفكرة المنشود

والملاحظ في المريض بهذا الداء أن الافراط في الكلام يسدره . وأنه يلتذ بابتكار وقائع غريبة وخلق تلفيقات مدهشة . وكلما كان حظه من العقل والتثقيف وافر استخدم عقله وثقافته ليقنع الناس أن حديثه الاجوف يحمل أروع المعاني وأخصب الافكار ، واستطاع أن يؤثر فيهم وينشر عدواه بينهم فاذا كان من الكتاب سافته نشوة الثثرة والمط والتكرار والكلف بالمحسنات اللفظية الى اختراع أفكار واحساسات وعواطف لا رابطة بينها ولا حقيقة حية تستند اليها ولا غاية محددة ترمى الى استيضاحها

واذا كان من المحامين حاول ان يظفر من القضاة بالتهويز ما لا يستطيع أن يظفر به بالمنطق المحكم والاستنتاج الدقيق والدفاع الواضح البليغ
واذا كان من العلماء أفقده هذا المرض فضيلة النظر الى الاشياء نظرة مجردة وتحديد علاقاتها الصحيحة واصدار الاحكام النزيهة عليها
واذا كان من الخطباء حمل الشعب على أجنحة الالفاظ الداوية وغرر به

ودفعه للقيام بأعمال قد يكون هو أول النادمين عليها ساعة أن يخلو الى نفسه
ويحاسبها على ما جنت شفاته

ويقول أوسيب لورييه أن من أعراض هذا الداء اعتداد المريض بنفسه
ون هو وتفخيره واستباحته حرمان الأفكار المجربة والفضائل المقدسة واستعداده
المجيب للكذب

غير انه لا يكذب عن عمد كذبا عقليا منظما يرمى الى غرض معين ، بل
يكذب اعتباطا وبلا مبالاة

يكذب لأنه لا بد أن يتكلم . ومتى تكلم فهو لا يلاحظ العلاقة بين حديثه
وفكره وبين أقواله وأعماله

وهو لا يحفل بهذه الملاحظة لأن البحث عن الحقائق لا يهمه . فاذا ما عرض
له شأن من الشؤون نظر اليه من خلال سحب الالفاظ المتراكمة وحاول بواسطة
الكلم الجميل المنمق أن يخلق عليه مظهر الحقيقة ، وان يصب فيه من روح
الاساليب الخطائية ما قد يظنه الناس حرارة وجدانية صادقة ، وحماسة فكرية
نبيلة ، وحياة مصطنعة متدفقة

وهذا ما يفسر لنا تلك الحالات النفسانية الغريبة الشائعة بين بعض
الزعماء السياسيين وقادة الجماهير أولئك الذين يعملون ويبشرون وينادون
بالمبادئ العظيمة والامثلة العليا ويخطبون ، بينا حياتهم اليومية وتصرفاتهم
الشخصية تعارض الغاية التي ترمى اليها تعاليمهم معارضة صارخة لا يشعرون
بها لفرط خضوعهم لسلطان الكلام وامتثالهم لسحره وتوهمهم أن الكلام هو
العمل وان النظريات هي الحقائق

وبما لا يقبل الريب أن مرض الافراط في الكلام وعدم تحري الدقة والالتزان
في التعبير عن الفكر يفقد الكلمات معانيها الصحيحة ويشجع الكثيرين على
الاستخفاف بالقيم العظيمة أو هدمها في غير احتفال . فتتساوى في نظرهم أقدار
الناس أو تعكس فيصبح النابغة عبقريا والعبقرى نابغا والشرير طيبا والطيب
شريرا . وهكذا يمتلىء جو الحياة بالآراء الزائفة ويتفشى الكذب ويتكون
رأى عام سطحي يعنى بالعرض دون الجوهر ويستريح الى الحقائق التقريبية
المضللة المبهمة ...

ومن أعراض هذا الداء أيضاً شدة ميل صاحبه الى النسيمة . فالثرثار عندما لا يجد مادة بريئة لثرثرته يوفق الأحاديث عن الغير وينسب اليهم من التهم ما هم منها براء فإذا ما لحقهم أى أذى بسببه فقد يتألم ولا يمكنه مع ذلك يمضى في رذيلته دون أن يحسب للواقب أى حساب

ولما أننا نلمح آثار هذا المرض بين الرجال كذلك نراه بين النساء . بل قد تكون النساء أكثر استعداداً لقبوله اذ المرأة بطبيعتها ثائرة لاسيما اذا كانت دميمة . أما المرأة العمية فنادرة الوجود

ويزعم أوسيب لورييه أنه قد طاف ببعض البيمارستانات ولاحظ ان المرأة المجنونة أسرع في الافضاء بدخائل نفسها من الرجل المجنون . وأنها ما تنفك تتحين الفرص لتستميل اليها بعض زفيقاتها وتأخذ في أن تقص عليهن مختلف الاقاصيص ويضيف المؤلف الى هذا ان تاريخ الاجرام حافل بالأدوار الخطيرة التي لعبتها المرأة

فالرجل هو الذى يقترب الجريمة ولكن المرأة هى التى نوحى بها . هى التى تشعل في الرجل جذوة الاقدام . وتصب في عروقه دم القوة . وتزين له ارتكاب الشر بحديثها المتواصل واصرارها المتداركة وألفاظها المختارة المعسولة المنهمرة كالسيل

ونحن اذا ما عدنا الى شمسبير وراجعنا قصة « مكبث » أدر لنا كيف ان الغريزة النسوية تقوم على شهوة الجنس وشهوة المظهر وشهوة الكلام وكيف ان « اللادى مكبث » توسلت الى أغراضها بالكلام وظلت تتكلم وتفتن في كلامها حتى دفعت بزوجها الرعديد الى اقتراف الجريمة . .

وقد تختلف المرأة عن الرجل في ان أفراطها في الثثرة كثيرا ما تصحبه فكرة تهيأ في الذهن قبل ان ينطلق اللسان بمدحها ، وابرار خفي محاسنها ، والاعراب عن الفوائد الجمة التى تنشأ عن تحقيقها

ومع ذلك فالمرأة لفرط ولهاها بالكلام لا تحب أن تتعجل تحقيق تلك الفكرة وتظل تعتقد أن الزمن كفيل باخراجها يوما من ظلمة الخيال الى نور الواقع . ولكن المرأة اذا ما لبست في النهاية من امكان تحقيق فكرتها بالكلام يعزبها عنها والاسراف في الكلام يلقى في روعها ان الفكرة قريبة التحقيق بل أنها قد حققت بالفعل

وهذه هي الحالة المرضية التي قد تنمو في نفس المرأة نمواً خطيراً اذا لم يسكن لها من عقلها المثقف ، واحساسها المهذب ، وضميرها الحى ، ما تستطيع ان تضبط به التوازن بين العقل والاعصاب وبين الفسكرة والحقيقة

ويهود بنا المؤلف الى تلك الطبقة من القادة ورجال الفكر الذين هم بحكم وظيفتهم أكثر استهدافاً لهذا المرض من سواهم وأقدر على نشره من غيرهم . فيتخير منهم الخطيب الزائف والكاتب الزائف ويرسم لكل منهما صورة حية واضحة الاضواء والقسيمات

فالخطيب الزائف يبني فنه الخطابي على الفصاحة مصحوبة بقوة الحركة والاشارة . وليس المهم في نظره ان يجتذب اليه مستمعيه بتقسيم موضوعه وتحديد نقطه والنعمق في شرحه وتحليله والاستعانة بالعواطف والعبارات الحماسية لاثبات وتوكيد النتائج الواضحة التي انتهى اليها بحثه . بل المهم عنده ان يلتقى الالفاظ الرنانة ويشفعها بالتلوينات العريضة والصوت الجمهورى . ليحدث في الجماهير تأثير عاصفاً مربكاً مباشراً يفقدها الاحساس بالحقائق واستطاعة ادراكها والرغبة في الوصول اليها

هذا الخطيب الزائف هو الذى لا تكاد تقرأ خطابه صبيحة يوم القائه حتى تمهت له وتهجب لكمية السخف المودعة فيه وتدرك ان التغرير بالشعب من أيسر الأمور وان هذا الخطيب ليس فى الحقيقة غير مسخ ومهرج كان أجدر به ان يحصل ويجول فى ملعب لأن يعتلى منبرا ويخطب فى مسائل تمس حياة شعب أما الكاتب الزائف فهو الذى يؤثر اللفظ على المعنى ويضحى بالمعنى فى سبيل اللفظ

هو الذى يختار أثخم الكلمات وأدهش التعابير وأندر المجازات ويعتبرها غاية لا وسيلة

هو الذى يسرف فى الالفاظ وينفقها جزافاً ويراكم الجمل بعضها فوق البعض الآخر ولا يتورع عن استخدام المترادفات ويكرر ما قال ويتكلم كثيراً ليعبر عن القليل هو الذى تضييع فكرته فى اعصار لفظه وتتضاءل معانيه فى ضجيج ثرثرته

هو الذى لا دقة فى أسلوبه ولا تمايز فى ألوانه ولا بروز ولا اتساق
هو الكاتب الذى لا يقدر الكلمات ولا يعتقد بأن لكل منها مكاناً خاصاً
يؤدى صورة خاصة أو عاطفة خاصة ، ولا يؤمن بأن هذا المكان يجب أن يحترم
ويحفظ من التبذل لى تحدث الكلمة فى نفس القارىء تأثيرها الحى العميق
وأما مثال هذا الكاتب كثير بين الصحفيين فقد تكون الفكرة بسيطة تافهة
فيطلب الى الصحفي أن يملأ بها ثلاثة أعمدة أو أربعة فيضطر عندئذ الى المصط
والتكرار والتعويض . وفى هذا ما فيه من الخطر على الفكر قد تستطيع الصحافة
تلافيه بالاستعانة بعدد وافر من الأدباء يكتبون المقالات القصيرة بأجر متوسط
كما هى الحال فى الصحافة الفرنسية الحديثة مثلاً

ولكننا اذا التمسنا بعض العذر للصحفي المسكين فلا يسعنا الا ان نحكم
الحكم الصارم على الاديب الذى يعالج خلق الأعمال الادبية الفنية وقد تمكن
من عقله مرض الكلام

وما لا ريب فيه ان الكاتب الزائف الذى يبتكر عملاً أدبياً تسوده الرغبة
فى العناية باللفظ لا يخلق غير عالم فكري أو نفساني زائف يسهل فيه التلاعب
بالمبادئ والآراء والعواطف والميول وتنعلم فيه الامانة والصدق فى التعبير
والتصوير

ولكن القارىء العادى كثيراً ما يخيل اليه ان هذا العمل قوى وأن الأسلوب
يتدفق تدفقاً ينم عن قريحة وقادة ومكانات خصبة خالقة ، بينما هذه القوة ليست
فى الحقيقة غير حمى الالفاظ تساور الكاتب ساعة يكتب وتحمله على امواجها
المتلاطمة وتتقاذفه وتكتسحه

ويقول اوسيب لورييه ان قيمة الكلمات ومعناها أشياء لا تحفل بها الجماهير
المتأخرة كثيراً ، إذ منطق تلك الجماهير هو منطق الاحساس لامنطق العقل .
والاحساس ميال بطبيعته الى الالفاظ الداوية التى تحتاجه وتلمبه
ومن خصائص الجماهير المتأخرة انها ميالة الى الجمل القصيرة التى تحبس الاحساس
الغني فى حيز ضيق وتودى الفكرة الطائشة البسيطة كاملة كتلك الجملة الرائعة

التي أجراها شكسبير في قصة « يوليوس قيصر » على لسان الشعب عندما أقبل بروتس عقب مقتل قيصر فقد هتفت الجماهير تحية له وتقديراً قائلة :
« ليحش بروتس . فلنناد به قيصراً ! »

وهكذا تتسرع الجماهير المتأخرة في المكافأة والتقدير وحل المشاكل الكبرى دون تبصر وحسباً تمليه عليها احكام العاطفة ونزوات الساعة
لهذا يجب تثقيف الشعب وصقل ملكاته الناقدة وتعويده المنطق الصحيح كي
يسهل عليه ادراك العلاقة بين الكلمات ومعانيها المباشرة وغير المباشرة فلا تؤثر
فيه جمجمة الكلاميين ولا يستسلم للنشوة مرض الكلام

هذه مجمل الخواطر التي احتواها كتاب العلامة أوسيب لوريه ، وهي كما ترى
تنطبق علينا كل الانطباق ولأنها قد كتبت من اجلنا
فنجن نتكلم كثيراً ونعمل قليلاً

نعمل انفسنا بالكلام بينا الحياة تطالبنا بالعمل . نغرق في الشجناء والجدل
اللفظي فيخيل اليانا اننا نعمل

ولفرط ما اسرفنا في الكلام كادت تبتذل أقدس كلماتنا « كالحرية »
و « الحق » و « الوطنية »

ولفرط ما استرحنا الى حرب الكلام كدنا نتوهم انفسنا جنوداً اشداء بواسل
قاموا بواجبهم على خير وجه

اني سرحت البصر الفيت مرضى الكلام تغص بهم البلاد وتكاد عدوهم تصيب
أرسخ الناس عقلاً وأثبتهم جناناً ، وابعدهم عن الخول والوهم

وان لا اعتقد أن داءهم قد أصبح وباء أفنك من السرطان والسل ، وان لا سبيل
الى مطاردته الا بأن يقبح كل منا في زوايته ويخلو الى عقله ويستجزم في عزله
ويفكر ثم يضع لنفسه برنامجاً عملياً ويسرع في تنفيذه فقرة فقرة

ان من يعمل لا يتكلم . والعمل القوي الذي انضجه الفكر الهادئ الرصين هو
وحده الذي يشفي من مرض الكلام

كلمات العصر الحاضر

Aphorismes du temps present

للدكتور جوستاف لوبون

اذاعت الصحف نبأ وفاة الدكتور جوستاف لوبون وجوستاف لوبون من المفكرين الفرنسيين الذين أصابوا قسطاً وافراً من الشهرة في مصر . فقد عني به كتابنا ، ونقلوا الى العربية معظم مؤلفاته ، ومن واجبنا اليوم أن نفيه حقه من البحث وأن ننظر في أعماله نظرة شاملة تحدد مركزه وترسل مضوماً ساحلماً على أفكاره وتعاليمه

ورغبة في الوقوف على حقيقة شخصية الرجل آثرنا أن نلخص كتابه « كلمات العصر الحاضر » ففيه خلاصة فكره ومجموعة الآراء المبعثرة في مختلف تواليه

ان أول ما يلفت الانظار في كلماته تقسيمه الانسان الى عقل وخلق ، وقوله :
« نحن لانهدي في سلوكنا اليومى بأحكام العقل بل بساطان الخلق »

والخلق في عرفة يتركب من المزاج وخصائص العنصر ومثرات الاسرة والبيئة والميل الخاص أى من قوى وراثية عاطفية بحتة تكسب الفرد شخصيات متعددة ، تضطجع فيه وتكن في طبيعته وتتحكم في نفسه على الرغم منه ، فاذا ما تبدل خلقه فجأة تحت تأثير ظرف من الظروف ، فذلك أن احدى تلك الشخصيات العديدة الغامضة قد استفاقت فيه بغتة وتفوقت على سائر الشخصيات

وعليه فقد ينتحل الفرد لاعماله اليومية أسباباً ومبررات عقلية ، ولكن هذه الاسباب ، انما ترجع في الغالب الى تلك القوى العاطفية المسيطرة عليه والواقم — في رأى جوستاف لوبون — أن الفرد لا ينفك في حياته العامة

يترجح بين عقله وعاطفته ، بين ما تمليه عليه ارادته العاقلة وما تفرضه ارادته الباطنية الخفية الممثلة في تفاعلات الوراثة والغريزة والعاطفة ، وهذا ما يفسر لنا مجموعة المتناقضات التي تبدو في سلوكه اليومي

فالعاطفة وما يصدر عنها من شهوات وآلام وحب ورحمة وتضحيات وعقائد دينية أو اجتماعية هي التي تحل في الافراد محل العقل ، وهي التي لو انتفت لتعطلت الحركة الانسانية واصابها الشلل

واليك بعض كلماته في هذا الموضوع :

« ان المعرفة العلمية هي الباعث الأكبر لتقدم الحضارة المادى ، ولكن العقائد العاطفية هي التي توجه الأفكار والاحساسات وتنظم بالتالى سلوك الأفراد »
« ان المعرفة تحدد الحقائق ولكن العقيدة تمثل الرغبات ، ولهذا يؤثر الانسان العقيدة على المعرفة »

« من الصعب أن نصادف رجلاً مستهدداً للتضحية بنفسه في سبيل حقيقة عقلية . ولكن من السهل أن تجد ألوفايچودون بأرواحهم عن طيب خاطر من أجل عقيدة »
فالفكرة المجردة التي لا تستند الى قاعدة عاطفية هي في رأى جوستاف لوبون فكرة معدومة التأثير على الافراد والجماعات ، وما دامت لم تتصل بحياتهم الوجدانية فلا يمكن أن تنتشر وتنمو وتعيش

والتاريخ في زعمه سلسلة حوادث وقعت خارج منطقة العقل وعلى نقيض ما يأمر به العقل . . حوادث تتحكم فيها العواطف والميول والنزوات

فاذا شئت أن تخلق التاريخ فخطب عواطف الجماهير . وليكن نفوذك عليها مستمداً من احترامها لك وتهيبها اياك . واعجابها بك ودهشتها منك ، فهذه العوامل تسلس لك قيادها وتشعرك بأن لاقية للدعوة التي تروج لها بغير نفوذ أدبي وروحي وليس للجماهير — عند لوبون — من منطق سوى منطق العاطفة . فهي أشد ماتكون استعداداً للقيام بأعمال البطولة والحماسة والعنف ، ولكنها بعيدة كل البعد عن محاولة الاسترشاد بملكات العقل الناقد البصير . وهي تطالب قبل كل شيء بالأمل ولا تستطيع أن تحيا بغير الأمل . وهي شديدة الرغبة في الايمان

تستخفها الوعود الكبيرة والملايات الخارقة ، وتذهب بلبها الجمل العاطفية الرنانة
تصب في قوالب مقتضبة عنيفة ، ومن خصائصها أنها تعبد القوة وتكره الرحمة
وتبغض الضعيف والضعفاء . أما قدرتها على ارتكاب الشر فلا حد لها

هذا هو رأى جوستاف لوبون في الجماعات ومنه ندرك مذهبه في التربية
ان قيمة الانسان في نظره لا تقاس — كما يظن معظم أساتذة المدارس
والجامعات — بنسبة علمه بل بنسبة مستواه الخلقى والعاطفى . اذ العلم لاشئ
بدون تهذيب . والتهذيب هو الذى يكون الخلق وانه لمن الميسور — فى بضع
سنين — أن نعلم رجلا همجيا ولكن تهذيب هذا الرجل وتكوين خلقه قد يقتضى
عدة أجيال

واذن فلا يمكن أن يحل العلم محل الخلق ، ونحن اذا وزعنا العلم اعتبارا
أفسدنا المواهب الطبيعية وأتلفنا الملكات المتسكرة الخالقة

والواجب أن نتوسل بالعلم لنبرز الفارق الأساسى بين فرد وآخر من مجموعة
أفراد تلقوا تعليما واحداً ، أى يجب أن تكون غاية العلم اظهار الكفايات لا قتلها
بواسطة أنظمة تعليمية تساوى بين الافراد والجماعات وتجعل من المدارس والجامعات
أشباه مصانع أو ثكنات

ولكى نظهر الكفاءة الشخصية يجب أن نميز فى العلم بين فرد وآخر ، ونشجع
صاحب الكفاية على استثمار مواهبه بأن نعمل ما استطعنا لتكوين خلقه . والسبيل
الى تكوين الخلق هو معرفة الطريقة التى تمكنتنا من ادماج ملكات الفرد العقلية
النامية فى ملكاته العاطفية الخفية . ومعرفة الفن الذى نخضع به عواطفه لاحكام
عقله بحيث يستطيع أن يتسلط على مزاجه وغرائزه واهوائه وورائته ويوجهها
وجهة عقلية نافعة

وقيمة العقل أو التعليم هنا هى فى قدرته على كبح قوى العاطفة التى حبتنا بها
الطبيعة وتنظيمها والانتفاع بها . وإن يكون ذلك الا بتدريب الصبيان على الملاحظة
والاستقراء والتسامى بالعواطف والأفكار . أما حشد العلوم وتراكمها فى الازهان
فلا فائدة منه البتة ، اذ العلوم تبنى أكثر مما تفسر ، وتحصى الظواهر أكثر مما

تهللها ، وتخلق من الأسرار أكثر مما تستوضح ، واعتماد الاستاذ عليها وحسدها
يوهم التلميذ أن العلوم التي يتلقاها حقائق مقطوع بصحتها فيضيق خلقه وتخلق
فيه ملكات البحث والملاحظة

والفكرة التي يرمى إليها لوبون هي ألا تكون غاية التربية ملء الروس بشقي
المعلومات بل إبراز الشخصية ، وانما مختلف العناصر التي تتألف منها : كالقدرة
على التفكير والملاحظة والحكم والاعتماد على النفس والنشاط وضبط الأعصاب ،
اذ هذه القوى العاطفية العقلية مندمجة هي التي تؤثر في مجرى الحياة اليومية ، وهي
التي يتفوق بها فرد على آخر ويسوده ويحكمه

فـكأن مذهب لوبون في التربية هو التوفيق بين العلم والخلق ، بين قوى العقل
والعاطفة لكبح جماح العاطفة وطردها نزواتها ، وتغليب العقل عليها ، والعناية
بمصلحة العقل وحدها

وهو انما يقيم التربية على ضرورة تغليب العقل ليهاجم حكم الجماهير القائم
في زعمه على تغليب العاطفة المتهورة كما سبى

وبنتقل بنا الى الحديث عن علاقة أنظمة الحكم بالجماهير - وهو الجانب
الخطير من تفكيره - فيقول ما دامت الجماهير سريعة الانفعال ، لا تعرف
الرحمة ولا التسامح ، أبعد ما تكون عن العقل الهادى الرصين ، ذات غضبات
طارئة هائلة ، وتقلبات فجائية غريبة ، وامتنال للزعامة أعمى ، فمن مهصاحة المجتمع
أن يكبحها ما استطاع وأن يفرض عليها الخضوع لقوانينه ولو اضطر في بعض
الاحايين الى اضطهادها اقراراً للسكينة وحفظاً للنظام . . .

على أن هذه القوانين التي على الشعب أن يحترمها ، ويدعن لها يجب أن تكون
مستمدة من مجموع أخلاقه وعاداته ومزاجه وصفوة النزعات التقليدية السائدة
فيه والا كانت مثار اضطراب وفوضى

ولا ينبغي أن يرتكز القانون على ارادة المشرع وعقله ونزعتة الحزبية بل

على ساحة الشعب المماسية اليه . اذ لا فائدة من وضع المشرعين قوانين - بالنسبة ما
ما بلغت من الرقي - لا تدعمها رغبات الجماعة وعواطفها
ولسكن من ذا الذي يجب أن يضم القوانين في رأى جوستاف لوبون ؟
أهو الفرد صاحب السلطة الانوقراطية المطلقة أم الجماعة نفسها ممثلة
في البرلمانات ؟

من البدهى أن من لا يؤمن بالجماعة لا يؤمن بالنظام النيابي . وعليه لجوستاف
لوبون يحمل على البرلمانات حملة هائلة ويطن الديمقراطية في الصميم ويقول أن
الهيئات النيابية مؤلفة في العادة من أفراد غير متجانسين تحممهم المصادفة وتعصف
بهم النزعات والمنافع الخاصة ويسمى كل منهم لاقرار وجهة نظره في شكل قانون
يظنه نافعا ولا يهتم بما اذا كان يتفق وميول الشعب واستعداده العقلي ودرجة
الرقي التي وصل اليها ...

يلوح لنا أن هذا هو جوهر فلسفة جوستاف لوبون الاجتماعية . فهو يسمى
الظن بالطبيعة البشرية . ويرى فيها محض غرائز حيوانية وميول طائشة ويغلب
العواطف في الفرد والمجموع على العقل وينسكرك استطاعة المجموع التحرر
من رتبة هذه العواطف ليتمكن من هدم كل نظام يقوم على حكم الجماعة وتمثل
فيه كما يزعم تلك العواطف التي ينفر منها والتي أرصد جهودده في معظم تواليه
على محاربتها

لهذا فهو يدعو الى حكم طبقة الاعيان من حفظة الثقافة والتقاليد والثروات
ولا ينفك يردد ان البرلمانات تمدن لسلطان العدد فتخلق الفكر السليم . وتهيجز
عن استبداله بقوة صالحة أخرى بينا طبقة الخاصة الممولين المثقفين هي التي —
بترائها القديم واعتيادها الحكم وامتلاكها موارد الثروة — تخلق الحضارات
وتعرف كيف تحد من غرائز الشعب وتلطفها وتصلحها وتسيرها في منهاج قوم
ومن كلماته : « ان الخاصة تبني ولسكن العامة تهدم » و « الشعب ينبوع قوى
عظيمة ان لم تهدمها الخاصة وتنتفع بها استحالت الى عناصر بؤس وفوضى »
وعليه فتى نشب الصراع بين الشعب والخاصة وكانت الغلبة للعدد فذلك هو
النذير باضمحلال الحضارة وفنائها ...

ويذهب جوستاف لوبون الى أبعد من هذا فينتصر للفرد على المجموع ويقول ان عقلية الافراد متى اجتمعوا كانت أضعف بكثير من عقلية الفرد المنزول . وهي فكرة بسيطة في ظاهرها ولكنها متى طبقت على أنظمة الحكم حلت في تضاعفها خلاصة الروح الارستقراطية ولباب أنظمة القرون الوسطى

أما نزعة المساواة الحديثة فيرى لوبون أن الطبيعة لا تعرفها وأن العالم لم يحقق مختلف ضروب التقدم البشرى الا خروجاً على هذه المساواة . وما الظلم إلا المساواة في نظره الا الدليل القاطع على كره الجماهير للشخصيات الممتازة ورغبتها في أن يحكمها من هم على مثالها كفاءة ومقدرة

وبعد ان يعم لوبون في مهاجمة الديمقراطية ينهل بمعوله على الاشتراكية يحاول أيضاً هدمها

والاشتراكية في زعمه (حالة عقلية) وليست عقيدة وسر ضعفها كامن في أنها تعد الناس بسعادة أرضية محضة . سعادة قائمة على استعباد الجماعات وفرض المساواة عليها فرضاً وهكذا يخلق الاستقلال الشخصى ويفقد الفرد حب المجازفة وتتقلص روح المزاومة وتهود الاشتراكية بالافراد الى عصور المساواة الأولى أى الى عهد بدائي ساذج منحط من عهود التطور البشرى

ومن كلماته في هذا الموضوع ما معناه : « أن استعاضتنا عن مسئولية الفرد وعقله بمسئولية الجماعة وعقلها هبوط بالانسان الى أسفل درجات سلم القيم البشرية » ولا يكاد جوستاف لوبون يفرغ من حملته على الاشتراكية حتى يرسم لك صورة هائلة مما يسميه الشروط الواقعية القاسية للنفس الانسانية فيقول : « أن السكفاح هو قانون الطبيعة العام ، وان الطبيعة لا ترحم الضعفاء . وان هذه القسوة الاصلية هي التي أنشأت الحضارات . فمن واجب الشعوب والحالة هذه ألا تركز الى مبادئ السلم ودعاة السلام . اذ كل شعب مسالم مصيره الى التفكك والانحلال ويلخص تعاليمه في أمثال هذه الكلمات :

« لا مجتمع بدون سلطة قوية ذات نفوذ ثقافى ومالى كما أن لانهر بدون شواطئ »

« مهمة العالم أن يحارب الاوهام ومهمة السياسى أن يستغلها »

« ان قمع الاضطرابات بقوة وسرعة أنجع من قمعها بضعف واستمرار »
 « ليس في وسع أى شعب ان ينقل انظمته الى شعب آخر الا اذا كان في استطاعته ان ينقل اليه روحه »

« ان الحضارة تنتفع بالعلم واسلافها لا تقوم على العلم »
 « ان روح الشعب الوراثة هي التي تتحكم في تطوره . أما الانقلابات السياسية فلا تبدل هذه الروح ان هي غيرت من أشكالها »

تعليق

هذه صفوة آراء جريستاف لوبون ، نصادفها في معظم دراساته مهما تنوعت الالفاظ التي يعبر بها عنها
 وما يجب ان نفهمه في مصر اليوم هو أن الرجل مفكر رجعي وأن السبب في رجعيته تأثره بتماليم بعض المفكرين الفرنسيين ذوى النزعات الارستقراطية والاتوقراطية
 فعقليته في مجمرها هي عقلية ما قبل الحرب وآراؤه هي الآراء التي كانت سائدة في فرنسا قبل الحرب والتي اعتنقها وروج لها ذلك النفر من أدباء الفرنسيين اثاره لهم مواطنيهم ورغبة في مقابلة الروح الوطنية العسكرية الالمانية بروح فرنسية مثلها

فلوبون كان مفكراً نفعياً . ينظر الى مصالحة بلاده في زمن خاص ولا يحفل بخدمة الفكر لنفسه . كان مفكراً ينشد في الفكر المنفعة لا الحقيقة بدليل أنه تجاهل أو جهل القوى الخفية التي كانت تعمل عملها البطيء في نفسيات الأمم ولم يفتن الى خطورة البواعث والحوافز الاقتصادية التي دفعت بأوروبا الى الحرب وساقط شعوبها بالرغم منها الى التفكير في ضرورة أشرافها التام على انظمة الحكم

وعليه فلم تسدد تنتهى الحرب حتى شاهد الرجل بعينه كيف تطورت العقلية الاوربية تطورا هدم آراءه واتجه اتجاها لم يكن يخطر قط له ببال

لقد حاول الانتقاص من حكم الجماعة بينا النظام في اوربا وغير اوربا اليوم يتجه الى توطيد حكم الجماعة فيها هي المانيا قد استحوالت الى جمهورية تتمثل في

برلمانيها أوفر وأشد العناصر الاشتراكية تطرفا وهما هي اسبانيا ايضا الى مثل هذا
وهاهو حزب العمال في انجلترا قد تمكن من الاضطرار باعباء الحكم ، بل هاهي
الميول الانسانية تحتل قلوب وعقول كبار مفكرى الغرب

وكل هذه الظواهر انما تدل على يقظة الجماعات ، واحساسها العميق بحقها
في تصريف شؤونها ، وعدم تسامحها في ان يعيث رجال السياسة والمال بمصيرها ،
وشهورها بأن الحرب الكبرى كانت نتيجة مظالم كبار أصحاب رؤوس الاموال
واستبداد بضع أفراد بمقاليد الحكم ، وما اوربا اليوم سوى ميدان فسيح تصطدم
فيه ارادة الجماعات الحية الطامحة الى استكمال حقوقها واعادة تنظيم اوربا على
أسس جديدة ، بارادة معظم رجال الحكومات واقطاب المال المستمسكين بتقاليد
السياسة القديمة العاملين على البطش بالجماعات واخضاعها . ولكن فوز الجماعات
في النهاية امر محقق تدل عليه منذ الآن مختلف التقلبات التي تلوح في الافق
الأوربي

والواقع ان الضعف في تفكير جوستاف لوبون يرجع الى استخفافه بالعوامل
الاقتصادية في الحياة العالمية واهماله بحشها والنظر فيما قد يترتب عليها من تبدل
رئيسى في أنظمة الحكم

وقد يكون انهيار الملكيات القديمة في اوربا واضطراب الانظمة النيابية
المستجدة في بعض دولها وقيام شتى الديكتاتوريات من آثار الفوضى التي عقيبت
الحرب ومن أدلة تزعزع مبدأ السلطة — سلطة الخاصة — التي دعا اليها لوبون
بالامس وما زال يدعو اليها المؤرخ الايطالى جوجليلمو فريرو حتى اليوم

ولكن لماذا نقرض أن مبدأ السلطة — كما كان يفهم فيما مضى — هو الذى
لا بد من توفره فى الحاضر والمستقبل كي ينتعش العالم وتعود اوربا الى سابق
مجدها ؟

ألا يمكن أن تكون هناك سلطة جديدة اكثر ملائمة للجماعات وتطورها
الجديد وأجدربتحقيق ميول الحاضر والمستقبل من سلطة الخاصة ورجال المال
واصحاب الثقافة العتيقة الداعين الى تثبيت فوارق الطبقات العاملين على استبعاد

الشعوب الصغيرة وتآليب الدول الكبيرة بعضها على بعض ولو هلك
سواد الشعب

ان العامل الاقتصادى هو الذى يتحكم فى مستقبل الحضارة شاء جوستاف
لوبون أو لم يشأ ، والعامل الاقتصادى هو الذى سوف يخلق السلطة الجديدة التى
لا بد منها لانشاء حضارة جديدة ذات آداب وفنون جديدة

فلماذا ننظر دائماً الى الماضى عند ما نقدم على حل مشاكل المستقبل
إن العالم يسير نحو حضارة صناعية فردة لا بد للكتلة الهائلة التى انتجت
وابرزتها أن تفوز بقسطها الوافر من نعيمها وان تشترك فى ادارة نظامها
العادل المبشور المنشود . . .

وليس من شك فى ان الازمة المالية الى نعانها الآن هى نتيجة رقينا
الصناعى واعتمادنا على الآلات فالآلة تقوم اليوم بما كان يقوم به بالامس عشرة
من العمال أو أكثر . ولقد نشأ عن هذا التطور أن زادت مقدرتنا على الانتاج
على نسبة ما نستهلكه . فتكدست البضائع وشلت الاسواق وأصبح لا بد من اغلاق
أبواب المصانع ، ووقف حركة العمل وتشريد العمال والاستهداف لشر ما يمكن
أن ينجم عن هذا الاضطراب

فما الذى بمنعنا استناداً على ما نشاهده الآن وعلى طبيعة حضارتنا الآلية من
من ان نؤمل فى اتجاه المجتمع يوماً نحو تنظيم العمل تنظيماً منصفاً جديداً بحيث
تتعادل قوى الانتاج والاستهلاك فلا يشتغل العامل أكثر من اربع ساعات فيها
الكفاية لتزويدنا بما نحتاج اليه ومنحنا من أوقات الفراغ ما نستطيع أن ننفقه
فى تهذيب عقولنا وغرائزنا وانماء خصائصنا الروحية التى يكاد يقضى عليها اليوم
افراطنا فى العمل والانتاج على غير جدوى ؟ . . .

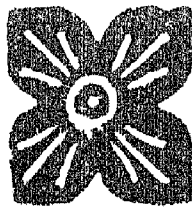
هذا هو التطور المنطقى المنتظر الذى لا بد ان يقوم على اكتاف الجماعات
والذى لم يهره جوستاف لوبون اى اهتمام

أما كلامه عن النظم النيابية وقوله ان الجماعات غير صالحة للحكم وانها لا تنفك
تنقاد للافراط فزعة خبيثة ترمى فى الواقع الى قتل فكرة الحضارة

اذ ليس معنى الحضارة أن يتفوق الفرد على نفسه والمجموع فحسب ، بل أن يتفوق المجموع أيضا برمته على نفسه اى على نزعات الاسراف والشطط والتقلب والتهصب وكل ما يسميه لوبون عواطف طائشة

ولكى يتفوق المجموع على نفسه ويحقق غاية الحضارة المثلى لا بد له من التطلع الى النظم النيابية الصحيحة وامتلاكها والتشبث بها وممارستها مهما أخطأ فى مبدأ الامر حتى يعتادها ويتكون فيه على مر الزمن احساسه بالحرية والتسامح والكرامة والمسئولية الحقه اى بالفضائل التى تخلق للجتماعات الحكامة تلك القوة العاقلة الناضجة المتزنة التى يأبى جوستاف لوبون الا ان يحملها وفقاً على الخاصه والمهم فى كل هذا اننا يجب الان نزرع لغلطات شعب حديث العهد بالحكم النيابى فنعمل على حرمانه منه اذ الخطأ هنا طريق الصواب والسقوط سبيل النهوض . وبمجرد الاضطلاع بالمسئولية يولد الشعور بالشخصية . ومعرفة استخدام الحرية فن محال ان نحذقه فى غير دائرة الحرية

وقدما كان روسو يقول ان الحرية هى التى تعلم الحرية !



خيانة الكتاب

La trahison des clercs

لجوليان بندا

صدر في فرنسا منذ بضعة أشهر كتاب أثار عاصفه من النقد انتصر له فريق من أكابر المفكرين وحمل عليه بعضهم حملات أ كسبت مؤلفه (جوليان بندا) شهرة واسعة

وجوليان بندا كاتب اجتماعي باحث من أعمق كتاب الفرنسيين نظراً وأشدّهم تأثيراً وأبعدهم مرمى وصدى

بدأ حياته الادبية بنشر قصة غرامية لم تصادف نجاحاً كبيراً . فأردفها بكتاب سماه (بلفجور) وهاجم فيه مذهب (الرومانتسم) أى تحكم العواطف في الاعمال الادبية تحكما يشوه الواقع ويخرج بالأدب من دائرة الحقيقة الى فسحات الخيال المشوش المريض

واستطرد العمل فأخرج مؤلفاً آخر دعاه (البرجسونزم أو فلسفة الحركة) وتناول فيه بالبحث والتحليل نظريات الفيلسوف هنرى برجسون وجعل ينقدها نقداً هادئاً متزاناً مرأ ، ويدلل عن أن فلسفة برجسون القائمة على العاطفة وعلى استطاعة فهم الأشياء والاحساس بها عن طريق الغريزة أو الاشراق الروحي أو الاستشعار الوجداني هي فلسفة مضطربة أقرب إلى الدين منها إلى الفلسفة . بأنها ترد الحقائق إلى حكم العاطفة ونزعاتها المتقلبة دون العقل وأقيسته الواضحة ومنطقه الصارم الصريح

ولكن هذه السكتب على ما فيها من دقة التحرى وروعة الأسلوب ومثاقته ونصوعه لم تثر حولها تلك الضجة التي أثارها المؤلف الذى نريد التحدث عنه هنا والذي أسماه جوليان بندا (خيانة السكتاب)

دهش الأدباء لجرأة هذا المفكر وما اشتمل عليه مؤلفه من حملة مادية على الكتاب جميعها

وهذه خلاصة ما جاء فيه :

يقول جوليان بنسدا أن الفكر العالمي أصبح فريسة النزعات الاجتماعية والسياسية ، وأن المفكرين الأحرار لم يعد لهم وجود ، وأن العصر الحديث لا يطالب المفكر باستقلال الرأي وحرية البحث قدر ما يطالبه بخدمة فئة محدودة وآراء متفق عليها . ونظريات مصطلحة مغرضة

فكتاب اليوم في نظر جوليان بنسدا نزلوا عن استقلالهم وفرطوا في شخصياتهم وخانوا عهد الفكر الحر الذي كان يجب أن يرصدوا جهدهم وعقولهم للذود عنه

فالبعض منهم ينضوي تحت لواء حزب معين يعتقد مبادئه ويبشر بتعاليمه ويعن في الدفاع عنه ولو كان تطبيق تلك المبادئ والتعاليم يهدم الحقيقة البسيطة الظاهرة ، والبعض الآخر ينتصر لأمتة ويتعصب لوطنه . ولا يقبل في حق بلاده أى نقد يريد أن يسمو بعنصره فوق العناصر . وثقافة أمتة فوق الثقافات . وبحقوقها الخاصة فوق سائر الحقوق . يتملق شعور الجماهير ويلهب فيها غرائز التفوق والطمع والحرب والاستعمار غير متورع عن استخدام قدرته الأدبية وانشائه الرائع وفكره الوقاد لبث روح الحق والاستبداد والتدهير

فالنزعات والميول السياسية كانت فيما مضى ونفا على رجال السياسة والحكم أما اليوم فقد انصرفت إليها أذهان الكتاب أنفسهم فأصبح لسكل أديب رأى سياسى . ولسكل مفكر حزب خاص . ولسكل شاعر أو قصاص شعبية ينتهى إليها ويفخر بترويج الدعوة لها

فهناك كاتب محافظ وآخر جمهورى أو راديكالى . وغيره اشتراكى أو شيوعى . أما السكاتب الذى ينصب نفسه فوق الجميع محلقا بعقله الفاحص فوق الجميع . متناولا كل مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية بالنقد الحر البرى . محتفظا باستقلاله ، مشرفا على معركة الحياة فى حيدة تامة . داعيا لسيادة الفكر المطلقة . فذلك رجل يندر أن تجده بين كتاب هذا العصر النفعى

ويشير جوليان بندا الى ظاهرة أخرى خليقة بالبحث والاهتمام . وهي أن الأحزاب تنصر على الدوام من ينصرها سواء كان نابغة أم عبقرية أم من ذوى العقول العادية النافذة . فما تكاد تخرج المطابع كتاباً جديداً حتى ينقسم النقاد في الحكم له أو عليه انقساماً طائشاً مغرضاً فالناقد الاشتراكي يذبل المديح لقصة الروائي الاشتراكي . والناقد المحافظ يستقبل كتاب الأديب المحافظ بأروع مظاهر التهليل والناقد الشيوعي يصخب ويحمل على الاربعة مما . وهكذا تنتشر فوضى التقدير الأدبي ويلتبس الأمر على الجمهور فلا تكون النتيجة غير انصراف كل الى حزبه والاشادة العمياء بما يخرج رجاء هذا الحزب من مختلف الابحاث والقصص ودواوين الشعر والرسائل والمقالات

ويرى جوليان بندا أن مصلحة الأمة أو مصلحة الحزب هي التي تملي على الكاتب آراءهم . أما مصلحة الفسك وحده فأخر ما يهتمون به ويضرب الامثلة الوافرة على ذلك فيقول . ان أدباء ألمانيا أصدروا في بدء الحرب منشوراً يحرضون فيه الشعب الألماني على القتال ويصورون له الحرب كعمل انساني ممتاز عظيم وكضرورة من ضرورات نشر الثقافة الجرمانية التي يجب أن تسود العالم بقوة الحديد والنار

وكذلك فعل الشاعر كبلنج والروائي شسترتون في انجلترا

أما في فرنسا فعواطف الحقد والدراية من نحو العنصر الجرمانى والتبشير بسياسة الغزو والاستعمار والنصرة الجنسية السخيفة المزعجة قد وجدت في أمثال (مورييس باريس) و (شارل موراس) و (ليون دوديه) و (بول بورجيه) واضرابهم كتاباً أشعلوا جذوتها في صدور الفرنسيين وما زال معظمهم يروج لها وبعد شعبه لحرب جديدة طاحنة

ولا يقصر جوليان بندا هجومه على هذا الفريق بل يحمل على الكاتب الاشتراكيين والشيوعيين أيضاً فينسب لهم نفس التعصب لمبادئهم التي استحال في نفوسهم عقائد دينية لا تقبل الجدل فيندد بالسياسة لرؤساء أحزابهم وعبوديتهم لشقى القرارات التي تصدرها تلك الأحزاب

فلو أفرط الحزب في تطبيق مبادئه أفرطوا في تبرير سياسته . ولو ارتأى انتهاك حرمة الحرية ناصروه ونقموا على الحرية . ولو توسط واعتدل توسطوا مثله واعتدوا فهم أبواق لأحزابهم وهم في عرف جوليان بندا (دعاة) وليسوا كتاباً . . .

ولنا أن نسأل ما تلك المهمة التي يريد بندا القاءها على عاتق السكاتب ؟ وما هي شخصية السكاتب في نظره ؟

ولماذا يسمى أولئك الأدباء دعاة فقط ؟ ولماذا يتهم كبارهم بالخيانة ؟ ان السكاتب في رأى بندا هو الرجل المستقل . الساج في اجواء الحقائق المطلقة الباحث في اطراد وثبات ونزاهة وإخلاص عن المثل العليا هو خادم الحق والعدالة والجمال والحرية . هو الذي لا يضحي بنفسه من أجل افراد بل من أجل الانسانية . هو الذي يعمل لسيادة الفكر اذ الفكر يجب أن يسمن على شؤون البشر وأن يظل بمعزل عن الميول الحزبية . المشوشة المتخبطة القاسية . يكبح من جماحها . ويكسر من شرتها ، ويردها الى السبيل السوي . سبيل المحبة والرحمة والانصاف والحقيقة

وله أن يكون وطني النزعة أو اشتراكي العاطفة . ولكن متى تبين له أن أمته نفسها عاتية ظالمة فباسم الحق والحرية يجب أن يثور على أمته ويفضح الظلم ومتى تبين له أن الاشتراكيين يسيئون فهم مذهبهم ويسرفون في تطبيقه اسرافاً يتعارض ومطالب الحق والرحمة والعدل . فباسم الحق والرحمة والعدل يجب أن يقاومهم

تلك هي سيادة المفكر وسيادة الفكر .

وقد يعرض هذا الموقف صاحبه للاختار . ولكن السكاتب الصحيح هو الدائم التاهب لاحتمال شتى ضروب العسف والذل والاضطهاد عن طيبة خاطر وتقبل الموت بثغر باسم في سبيل حرية الفكر والضمير ان فولتير وقد شعر بالظلم المحدث (بكالاس) خرج على بيئته ودافع عن المتهم أحر دفاع . وأميل زولا . وقد أيقن ببراءة الضابط دريفوس لم يتوان لحظة

واحدة في الخروج على أمته واتهامها بالتعصب والجور والانتصاف للضابط المظالم في تلك الرسالة الرائعة (أنى أنهم) .

وليون تولستوى — بطل الاشتراكية الروحية — ثار على الأنظمة والتقاليد جميعاً ونصب نفسه المدافع الجريء الجبار عن حق الإنسانية في السعادة . وحق طبقات الشعب المستعبدة في الحرية والمساواة

ورومان رولان - بطل السلم - لم يشأ أن يلوث يديه بدم أخيه الإنسان ففر من خدمة الجيش . ونزح الى الأراضى السويسرية . وظل هناك يشن حرباً قلبية هائلة على الحكومات المتمولة المستعمرة التي أشعلت نار الحرب الأخيرة في أوربا

أولئك الكتاب وأمثالهم دافعوا عن حرية الفكر وحرية الإنسان واستهدفوا للسجن والنفي والتشريد والموت . فادوا الأمانة أهلها وأوفوا بما للحضارة عليهم من فروض ولم يخونوا العهد بل كانوا كتاباً عظاماً مخلصين !

تلك هي صفوة الآراء التي اشتمل عليها مؤلف جوليان بندا النفيس (خيانة الكتاب) وهي كما ترى دعوة حارة الى سيادة الفكر وحرية بل الى الحرية ذاتها من حيث هي قاعدة الحضارة والتطور

ولا ينبغي ان يفهم أدباؤنا مما تقدم ان انتماء الكاتب الى أى حزب هو خيانة للفكر . كلا

فتى كان الحزب يبشر بفكرة الحرية فالانضواء تحت لوائه واجب والعمل في سبيله نعم العمل ونعم الجزاء !! .